يتيمة البيان لمشكلات القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى انزل على عبده الكتاب و لم يجعل له عوجا ، ففتح به قلوباً غلفاً و عيوناً عميا و آذانا صما فاقام به حججاً ، و الصلوة و السلام على النبي الامى الهاشمى القرشى افصح من نطق بالضاد و أوتى جوامع الكلم و مصابيح الدجى - و على آله و صحبه و علماء امته و هداة ملته الذين كابدوا للدين و غاصوا لاجله لججا ، فنشروا القرآن و السنة و أنفدوا وسعهم فى اثرة العلم و دين الحق فوصلوا كنداً و ثبجا ، فهدوا الى الطيب من القول و اصلحوا الفساد و دفعوا الشر عن البسيط و اقاموا عوجا ، عليهم رحمة الله و بركاته مادامت العيون تبتهج بباهر آيات الله و القلوب تشتفى بمعجز كتاب الله و تطمئن به ثلجا ، اما بعد فكنت ألفت جزءاً حافلا فى هدى امام العصر الشيخ المحدث مولانا الشاه محمد انور الكشميرى ثم الديوبندى رحمه الله تعالى و صدعت فيه بمآثره العلمية و لباب أنفاسه المباركة بقول وسط لا وكس فيه ولا شطط وكان الرأى عند تاليفه ان

يجعل « مقدمة » لكتاب الشيخ « مشكلات القرآن » و من اجل ذلك لم استقص سائر اطراف الكلام فى بعض مزايا حيوته المباركة و اقتنعت بالاجمال فى كثير من المواضع وما اعطيت كل ذى حق حقه الا انه مع هذا لما انجزت العمل و استوفيت الغرض و ذهب بى القلم الى كل واد و اتسع المجال و زاد القدر على ماحا ولناه فى بدأ الامرنا سب ان يجعل جزءاً برأسه مفرزاً حتى وقع العزم على طبعه مفرداً بعد الاستشارة ، و ما خاب من استخار و ما ندم من استشار ، و الآن لما عزم اهل المجلس العلمى القائم بالجامعة الاسلامية « بدابهيل » من اعمال « سورت » طبع كتاب « مشكلات القرآن » اشار واعلىّ بأنشاء مقدمة موجزة فحاولت ان اقتصر بلمعة من ترجمة حضرة المؤلف امام العصر رحمه الله و قول موجز نلمّ فيه المامة بمشكلات القرآن و ما يلائمه مما اقتنيتها من معاد نهم او انتقيتها من المظان و ما وصل اليه علمى من أفادات الشيخ رحمه الله و ربما كان يخطر بالبال ان احرّر ما تنقح لدى من آراء القوم و ما شنفت به أُذنىّ من افادات امام العصر شيخنا المؤلف رحمه الله فيما يتعلق بمشكلات القرآن و وجوه اعجازه و من مكابدة اهل العلم فى كل عصر لخدمته من العصور الزاهية بحلية العلوم و المعارف على تشعب و تطرق غير ان كون هذه الاوراق مقدمة لكتاب يتحجر ذلك الموضوع الواسع كيف و ان المجال فيه رحب و الوقت ضيق ، و عسى ان يوفقنى الله سبحانه و تعالى لاجالة الفكرة فى زواياه حتى تستنير منها ارجائها القاصية و خفاياه ، و لكن الغرض الاعنى ههنا ان يذكر ما ينجلى به أهمية مشكلات التنزيل و ما ينوه به شان

شان هذا المؤلف الجليل و ان ينظم ما إلتقطته من دررالشيخ المبعثر فى برنامجته او فى بعض مؤلفاة و ما حصلته من افاداته العالية فى الدروس و عهد الصحبة ، و انها كلمات جاد بها محنك العصر مدره القوم من بعد ما نحر حقائق العلوم نجراً و قتل المرايا الصعبة قتلا ، ففصل منها عرقا عرقا و ذاقها برهة من عمره تجربة و حنكة فأودعها فى طوايا قلبك و خبايا ضلوعك و وسع لها ساحتها الضيقة فان فيها رواء كل غلة و شفاء كل علة ولا ينبئك مثل خبير فحسبى الله و نعم الوكيل ، نعم المولى و نعم النصير ، اللهم فقهنى فى الدين و علمنى التاويل اللهم الهمنى الحكمة و تاويل الكتاب اللهم انى أسالك بكل اسم هولك انزلته فى كتابك او استاثرت به فى غيبك و أسألك بأسمك المطهر الطاهر بالاحد الصمد الوتر و بعظمتك و كبريائك و بنور وجهك ان ترزقنى القرآن و العلم و ان تخلط بلحمى دمى و سمعى و بصرى و تستعمل به جسدى بحولك و قوتك فانه لا حول ولا قوة الا بك ، و انا الاحقر محمد يوسف بن السيد محمد زكريا الحسينى البنورى اصلح الله حالها واحسن مآلها خادم الطلبة بجامعة دابهيل من اعمال سورت و ذلك سنه ١٣٥٦ هجرى .

لمعة من ترجمة امام العصر الشيخ المحدث
محمد انور شاه الكشميرى صاحب
مشكلات القرآن قدس سره

حياته الجميلة ، نشاته و تحصيل علمه و وصوله الى ديوبند

و حج بيت الله و رجوعه الى الوطن ثم تدريسه بديوبند
و تركه ديوبند و رحيله الى قرية دابهيل ثم وفاته

هو امام العصر مسند الوقت الجهبذ الكبير الشيخ العلامة محمد انورشاه بن معظم شاه بن الشاه عبد الكبير الكشميرى ثم الديوبندى كريم المحتد ، طيب الارومة ينتهى نسبه السامى الى العارف الشيخ مسعود النروى الكشميرى جاء سلفه من بغداد فدخلوا بلدة لاهور بالهند ثم ملتان ثم استوطنوا كشمير ، ولد رحمه الله تعالى سنة ١٢٩٢ اثنتين و تسعين بعد الالف و المايتين من الهجرة بقرية و دوان (بالواوين الاولى منهما مضمومة بينهما دال مهملة على زنة لبنان) من مضافات كشمير ، نشأ فى صلاح فطرى تبرق غضون النجابة و اسرة السعادة فى جبينه و تفرس فيه بعض العارفين و اهل الباطن انه عسى ان يكون له شان و اخذ فى القراءة و هوا بن اربع سنين و فرغ من التنزيل و كتب الفارسية و مبادى العلوم العربية على والده و على بعض علماء بلده وهوا بن عشر حجج و بشر بعض من أحس ذكائه و حدسه من اهل الفراسة الاياسية بانه سيكون غزالى عصره و رازى دهره ثم رحل بعد برهة الى بقاع هزاره و مكث بها ثلاث سنين فى أرجائها عاكفاً على تحصيل العلوم المتداولة من كتب المنطق و الفلسفة و الهيئة و غيرها على اساتذة الفن بيد ان غليله يزداد كل يوم ولم يقتصر على ذلك القدر حتى وصل الى ساحة دارالعلوم الديوبندية ذلك المعهد التاريخى العلمى و الجامعة العربية الدينية و ناهيك بها شمسا فى سماء الهند فقرأ كتب الحديث و شيئاً من غيرها على رحلة العصر و مسنده وغرة زمانه شيخ العالم مولانا

محمود الحسن الديوبندى رحمه الله المعروف بشيخ الهند و على المحدث الفاضل الشيخ محمد اسحق الكشميرى ثم المدنى حتى ترعرع حبراً فاضلا و هوا بن ست عشرة حجة فذهب الى بلدة دهلى عاصمة الهند و مكث عدة شهور يدرس الكتب من فنون شتى فلم يلبث الا وقد طارصيته ثم اسس مدرسة عربية بالحاح بعض رفقاءه و اسعاد بعض اهل الخير و الثروة و سماها « مدرسة امينية » بأسم رفيقه المولوى محمد امين المرحوم و لما بسقت فروعها اغراه الحنين الى زيارة والده المحترم و انتقلت والدته المرحومة فى ذلك العهد الى جوار ربها فاشتاق الحضور على قبرها نذهب الى مألفه كشمير و اقام بها ثلاث سنوات فأسس مدرسة دينية سماها « الفيض العالم » وسعى فى تلك البرهة فى اصلاح كثير مما راج هناك من البدع و الرسوم المحدثة فرأب الله به الثأى و شعب الصدع ، ثم اشتاق زيارة بيت الله جل ذكره و حرم رسول الله صلى الله عليه و سلم فوفقه الله تعالى الى زيارتهما و ثوى شهوراً يروى غليله ثم رجع الى وطنه طاوياً فى ضميره المعاودة بعزم الهجرة الى المدينة فمكث غير بعيد حق شغف فؤاده بما كان نواه حتى ازعج خاطره فأخذ عصا التسيار و وصل الى ديوبند الى لقاء شيخه المحمود رحمه الله و أنباه بما نوى فأمره الشيخ رحمه الله بفسخ العزم و أبرم عليه الاقامة بديوبند لما تفرّس فيه من مخائل الفيض و البركة و آثار النجابة و الكرامة وكان العود الى مَباركه مبارك و فوض اليه درس عدة كتب من الصحاح الستة ثم لما عزم الشيخ رحمه الله الحج فاستخلفه مقامه وكان من امر الشيخ ما كان من اسارته بجزيره مالطة من جانب الحكومة البرطانوية

فبقى هو رحمه الله مقامه عشرين ربيعاً يدرس صحيح البخارى و جامع الترمذى و أحياناً غيرهما معهما ، الى ان نشأ تشاجر فى ساحة دارالعلوم فاحب العزلة و استقال منصب درسه فتهافت عليه القوم من كل جانب حتى اصر عليه المشتاقون الى بركاته من اهل الخير و الدثور بأن يمتطى صهوة الرحيل الى گجرات الهند منشأ الشيخ على المتقى الگجراتى صاحب « كنز العمال » و شيخ ابن حجر المكى صاحب « الصواعق المحرقة » و « الخيرات الحسان » فى آخر عهده فرضى به الشيخ بعد ألحاح لمصالح تفرسها الشيخ الى ان ارتجت تلك البسيطة من طنين حديثه نحو خمس سنين فقوم بوجوده المبارك اودها و استقام عوجها و سارت الركبان تروى احاديث فيضه و بركاته و تشكر جدباء الهند ايادى غمامه و صوبه غير انه اجتوى الگجرات و استوخم تلك الديار فأبتلى بداء البواسير و اشتد داء العضال حتى نزفه الدم و استولى عليه الصفراء الى ان حان اجله بديوبند فتوفى رحمه الله فى الثلث الآخر من ليلة الاثنين الثالثة من صفر سنة اثنتين و خمسين بعد الالف و ثلث مأة (١٣٥٢ هجرى) و التاسع و العشرين من مايو ١٩٣٣ م و رثاه الأفاضل من العلماء و الادباء بقصائد رنانة طويله تزعج الاحشاء و أنشد فى حفله تأبينه بديوبند بعد يوم من وفاته سبع عشرة قصيدة بالعربية و الاردوية وا ظن ان عدة القصائد التى رثى بها الشيخ بالعربية و الفارسية و الاردوية تبلغ الى نحوستين فصاعداً ، قال الشيخ الكاندهلوى شارح المشكوة ــه

سلام على حفظ الكتاب و سنة و حفظ و ضبط بعد شيخ مبجل
فقد كان اعجازاً لدين نبينا كمثل البخارى اوكنحو ابن حنبل

و هى

و هى قصيدة طويله تجاوز ستين شعراً ، و رثاه الاديب الكاملفورى صديقنا مولانا محمد يوسف الاديب الشاعر بقصيدة طويلة منها ـــه

خطب اجل اناخ من حدثان بالمسلمين مـــلة الايمـان
صمت به الاذان ثم تصدعت اكبادهم بفوادح الاحزان

الى ان قال ـــه

حكم يمـانية فقـدت معينهـا لما قضى بالروح و الريحان

و قال ـــه اسمى و اسنى لا يقدر كنهه لغة و تحديثا عن الاعيان

„ خصائصه البارعة „

و قد جمع الله فيه شمل البدائع و الروائع من الجمال المعجب و حسن السيرة و الورع و الزهد و التقوى و التواضع و قوة الحافظة و دقة النظر و الاستبحـار المدهش فى علوم الرواية و الدراية و الاستحضار المحـــير و الخوض فى الحقائق و مشكلات العلوم و بالجملة لم يكن تحت اديم السماء اوسع غلماً منه بعصره فيما نعلم قرآناً و سنـة و فقهاً و كلاماً و بلاغـة و ادباً و تاريخاً و لم يكن فوق البسيطة اجمع رجل فيما نرى و رعاً و زهداً و حسن صورة و بهاء منظر و نظافـة طبع و جسم و لطـافة روح و نقاء سريرة و ذكاوة ذهن و بديهـة مطاوعـة و سلامـة ذوق و وقاراً و متـانة فرزقه الله طبيعـة من اسلم الطبـائع و قلباً من اذكى القلوب و نفساً من ازكى النفوس و جماع الكلام انه كان اكمل انسان فى عصره جمالا و كمالا ، خلقا و خُلقا ، هدياً و سمتاً و ايم الله انه كان يملا القلب سروراً و العين

جمالا و الاذن بياناً و ما رأينا ابلغ منه فى العلم و لا اصبر ولا احضر منه جواباً ، قال المحقق العصر الحاضر العلامة الشيخ شبير احمد العثمانى الديوبندى « شارح صحيح مسلم » لم تر العيون مثله و لم ير هو مثل نفسه » وكان ربعاً من الرجال وثيق الجسم متناسب الاعضاء وكان حزين القلب دائم الفكرة طويل السمت و غلبت عليه الرقة فى آخر عهده فكان يبكى كثيراً فى القاء الدروس و عظه فى المحافل وكان شديد الحب لاهل العلم و اهل الصلاح وكان يعظم العلماء و يوقر اهل الانساب و الاشراف كثراً وكان اذا تكلم تكلم بكلام جزل فصيح موجز و اذا استزيد و جد بحراً لاساحل له و بالجملة كان اماماً و حيداً فى مآثره الظاهرة و الباطنة وكان كما قيل ـــه

لكل زمان واحد يقتدى به و هذا زمان انت لا شك واحده

وكما قيل ـــه

لو نال حى من فى الدنيا بمنزلة وسط السماء لنالت كفه الافقا

و له رحمه الله مؤلفات عديدة منها عقيدة الاسلام فى حيوة عيسى عليه السلام و اكفار الملحدين فى شئى من ضروريات الدين و فصل الخطاب فى مسالة ام الكتاب و غيرها الى نحو عشرين مؤلف ما هو برهان ساطع على تغلغله و تبحره فى العلوم قاطبة و دقة نظر فى المسالك و خلف ذخائر من تذكرته و برنامجه فى سائر العلوم و لا سيما القرآن و الحديث و قدقام لمكافحة زنادقة هذه الامة العصابة المرزائية القاديانية المنسوبة الى زعيمها الضال المضل المرزا غلام احمد القادياني الفنجابى جعل الله امه هاوية و قد جعل ، فذب عن الاسلام فى استيصال شأفة هذه الشجرة الملعونة

لساناً و بناناً و حث العلماء و الفضلاء و اصحاب الجرائد الى مقاومتها و مكامعتها فأثمر الله نهضته المباركة فتركها على مثل مشفر الأسد و انتهج للعلماء مناهج التحقيق و طرق التفصى من المعضلات وكان درسه جامعاً لبدائع تخل به مشكلات سائر العلوم و اقتفى العلماء المدرسون أثره بيد انه « لافتى كما لك و لا ماء كصداء » ـــه

و ما كل من قال القريض بشاعر و لا كل من عانى الهوى بمتيم

فرحمة الله على ذلك الجسد الاطهر و الروح الانور و بركاته تترى على تعاقب الايام ما لاح برق او جاد غمام اوناح حمام .

و خلف من اولاده الذكور ثلاثة ابناء محمد ازهرشاه وهو اكبرهم ومحمد اكبر شاه و هوا وسطهم و محمد انضر شاه و هو اصغرهم و فقهم الله تعالى للعلم النافع و العمل الصالح و اطال اعمارهم و من اخوانه محترمنا الفاضل ذوالمتانة و الوقار مولانا عبدالله شاه الطيب و صاحب الفضل و الشهامة مولانا محمد سليمان شاه و صاحب السيادة و النجابة الفاضل محمد سيف الله شاه و صاحب المكارم محمد نظام شاه و والده المحترم مولانا محمد معظم شاه ينقضى انفاس عمره بكشمير و هو حيّ جاوز عمره المبارك مائة و عشر سنين نفع الله به الامة ، هذا ـ و من شاء الاطلاع على مآثره العلية تفصيلا فليراجع الى رسالتى « نفحة العنبر من هدى الشيخ الانور » فانه يجد هناك نقعة لكبد حرى و قرة لعين عبرى و قد طبعت و شاعت و لاقت من الاكابر اقبالا عظيما لم اكد ان يخطر ببالى مثله و لا سيما من حضرة المحقق العارف الشيخ المحدث التهانوى مولانا الشاه محمد اشرف على و مولانا محقق العصر

شيخنا العثماني و مولانا المحقق محمد كفايت الله رئيس جميعة العلماء و شيخ الحديث بالمدرسة الامينية بدهلي اطال الله بقاءهم في عافية غير عافية و أريد ان اذيل هذا الموضوع بمرثية للعالم الفاضل المتبصر الاديب البارع مولانا محمد شفيع الديوبندي احد اساتذة دارالعلوم الديوبندية رثى بها امام العصر الشيخ رحمه الله و هذه المرثية غير ما ذكرناه في النفحة ، قال ــه

نعى بك ناع سحرة الفجر فانبرى يضج السما والارض والبدو والقرى
و ابكى الجبال الشامخات نحيبه و وبراً و مدراً و الفلا ثم أبحرا
و ابكى دروساً و المدارس جمة كذلك اقصى[1] مسجد ثم منبرا
نعينا بجماع العلوم و سيما الحديث و قرآناً كريماً مفسرا
فلم ادرِ ارثي عالماً ام عوالماً و علماً و حلماً ثم للفضل[2] جهرا
و فقهاً و تحديثاً و رأياً و حكمة و ورعاً و زهداً في السماء مشهرا
و وجهاً طليقاً باسماً متهللا اذا زرتَ زرتَ البدر تماً منورا
أحقاً عباد الله ان لست زائراً بعيني بعد اليوم شيخي انوار
بخاري عصر ترمذي زمانه و زهريَّ وقت لا خلاف و لامرا
فلو انها رزء من الدهر واحدٌ و لكنه غيم احاط[3] فأمطرا
فما فقده و الله فقد لواحد و ربي جناحا العلم منه تكسرا
فطاب ثرى من راح في الله و اغتدى لنشر علوم الدين قام مشمرا
و لم يأل في اعلاء دين و نشره تراه لوجه الله سيفاً مشهرا
فذاك اللعين القاديانيُّ اذبدا فغادر ارض الله للكفر محورا

(١) اى بعد منه ١٢ (٢) صدراً مصدرا (٣) النوائب امطرا

وكان

و كان رسول الله اخبر انه سينزل فيكم ابن مريم آخرا
ليملى ارض الله قسطاً و معدلا كما قد غدى للظلم مأوى و مفجراً
اتى فادعى انى المسيح وا نى لمصداق ما قال الرسول و اخبرا[1]
و انى خليل ثم موسى و احمد تكاد السما من فريه ان تفطرا[2]
مسيلمة الفنجاب دجال عصره تنشأ فى كذب على الله مفترى
فلما طغا دجلا و قد طم خطبه اتاح له الجبار شيخى انوارا
فنادى طواغيت الضلال مهددا لينصر دين الله نصراً مؤزرا
فشيد اركان الهدى و انارها و مذر بنيان الضلال و بذرا
و شنف آذان الورى بفرائد فجادت بها الاجفان غدوة ادبرا
فوا لسويعات الوصال و طيبها و صفو حياة لا يزال مكدرا
و لله ايام تمليتُ طيبها بروض الامانى اخضلا ثم اخضرا
و عدت به و الحمد لله فائزاً و اسعد حظاً[3] ثم اربح متجرا
فحسبى به فى العلم و الدين قدوة و حسبى به فى مشهد القوم مفخرا
لعل الرؤف البر يلحقنى به بلى[4] و الرجا فى الله فليك اكثر
و الا فما فضل الجدود بنافعى و ان كنت معزواً الى اوثق العرى
فليس لمن لم ينحُ منحى جدوده بعزوته فى الدين عزاً و مفخرا
فمن صلب نوح ابنه غير صالح و ان خليل الله من نجل آذرا
و ذاك ابوجهل اخو الذُلّ و العمى و انّ بلا لا فاق احرار حميرا

(١) اى اخبريه ١٢ - (٢) اى تفطر ١٢ - (٣) جدا -
(٤) و انى لارجو الله خيراً و اكثيرا -

عليك باعمال البصيرة فيهم و ان تأتسى آثارهم ما تيسرا
فما عبرتى الا لذى العين عبرة و وعظ و ان لم تستطع ان تعبرا
و ما ذا لتشكى من زمان و صنعه اذا كان امر الله قدراً مقدرا
و فى سالف الايام ما فيه عبرة و فهم[1] لذى عينين رام التبصرا
و من امعن[2] الدنيا و نضرة دِمنها يجد نكرها عرفا كذا العرف منكرا
اذا[3] ادبرت كانت على المرء حسرة و ان اقبلت صارت همومك اكثرا
تفكر تجد فى كل دار سكنتها مقابر للآمال للخلق منحرا
و سوف ترى ما قد جمعت مكابداً ستسلبها الا قميصاً و مئزرا
و اسعد خلق من[4] تدرع بالتقى و ان كان فى دنياه أشعث اغبرا
فواهاً له من رائح حلّ روضة بجنب[5] المصلى لا يزال منضرا
سقتها غوادى رحمة الله بكرة فعادت سواريها بليل مكررا
فياحىّ يا قيوم لطفاً و رحمة و فضلا به عودّت يا رب انوار
بروح و ريحان و فردوس جنة و مقعد صدق منك ارفع الذرى
بجاه امام المرسلين محمد و صحبته الاخيار من جهمر الورى
عليه سلام الله ما ذرّ شارق بعدة من صلى و صام و كبرا
فيا خير خلق الله صفوة رسله نبى جميع الانبياء و لا مرا ،
اتيتك لما عيل صبرى و همتى وفاتت ذنوبى ان تعد و تحصرا[6]

(١) و ذكرى - (٢) حرب - (٣) هذا البيت لبعض المتقدمين من الشعراء ادرجته بتصرف لجودة معناه ١٢ - (٤) الله من عاش -
(٥) قبره الشريف بجنب مصلى ديوبند يزار و يتبرك به ١٢ - (٦) و قائدخيل (٣) اتيتك

اتيتك اذ ضاقت على مذاهبي اذلّ عبيد الله احقر افقرا
فان لم تنلنى منك فضلا و رحمة شفاعتك الحسنى لكنت المخسرا

وعدة[1] ابياتى حساب وفاته
و رابع عشر قرنه خذ محررا

هذا و صلى الله تعالى على سيدنا و مولانا سيد ولد آدم و آله و صحبه و بارك و سلم .

القرآن و علومه و مآثر الامة فيها

اقول و الله و لى التوفيق و العصمة ان كتاب الله جل ذكره كما قال ﴿ و انه لكتاب عزيز لاياتيه الباطل من بين يديه و لامن خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ ، كتاب بهر العقول و سحر الفحول من الحكماء و العقلاء و العرفاء و الفصحاء ، سجدت جباه مصاقع الفصحاء لبديع نظمه من الرصف العجيب و البيان المعجز حتى خلبت عقولهم روعته المدهشة و طلاوته البارعة و خر وجوه اعاظم الحكماء لحكمة العالية و اسراره الغامضة التى كلت دونها افهامهم و حسرت دون ذروة سنامها افكارهم و احلامهم و غاص اكابر العرفاء فى بحار معارفه و حقائقه فأعيتهم لججها دون الوصول الى دركها الغامر الذى انقطت دونه مطامعهم و خاض العلماء و الفقهاء فى غماره فاخرجوا الى الامة لآليه و جواهرا صدافها الكامنة فأصبحت درة التاج لا كليل نظام العالم و غرة لجبين تهذيب العصر وهو كتاب قال عز

(١) يعنى سنة احدى و خمسين من القرن الرابع عشر بعددا بيات القصيدة ١٢

من قائل فى وصفه و قد انزله بعلمه كتاب ﴿انزلنه اليك مبارك ليدبروا آيته و ليتذكر اولو الالباب﴾ (ص) و قال تعالى ﴿و انه لكتاب عزيز لا ياتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه تنزيل من حكيم حميد (حم سجدة) و قال تعالى ﴿الله نزل احسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم و قلوبهم الى ذكر الله﴾ (زمر) و قال تعالى ﴿تنزيل من رب العلمين نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين﴾ (شعراء) و قال تعالى ﴿و انه فى ام الكتاب لدينا لعلى حكيم﴾ (شورى) و قال افصح الناطقين بالضاد افضل من اوتى الحكمة و فصل الخطاب اعلم الناس من مضى و من غبرو اعرفهم بالله قاطبة و أنفذهم بصيرة بأسراره و حكمه سيد المرسلين خاتم الانبياء محمد صلى الله عليه و سلم فى و صفه ما لم يدع شأواً لمستبق فقال كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم و خبر ما بعدكم و حكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله و من ابتغى الهدى فى غيره اضله الله هو حبل الله المتين و هوا لذكر الحكيم و هو الصراط المستقيم و هوا لذى لا تزيغ به الاهواء و لا تلتبس به الألسنة و لا يشبع منه العلماء و لا يخلق على كثرة الرد و لا تنقضى عجائبه و هوا لذى لم تنته الجن اذ سمعته حتى قالوا ﴿انا سمعنا قرآناً عجباً يهدى الى الرشد فآمنا به﴾ من قال به صدق و من عمل به اجر و من حكم به عدل و من دعا اليه هدى الى صراط مستقيم رواه الترمذى فى جامعه من حديث حارث الاعور عن على رضى الله عنهما - و قال صلى الله عليه و سلم : القرآن ذو شجون و ظهور و بطون لا تنقضى عجائبه و لا

و لا تبلغ غايته فمن او غل فيه برفق نجا و من او غل فيه بعنف هوى اخبار و امثال و حلال و حرام و ناسخ و منسوخ و محكم و متشابه و ظهر و بطن فظهره التلاوة و بطنه التاويل فجا لسوابه العلماء و جانبوا به السفهاء ، اخرجه ابن ابي حاتم من طريق ضحاك عن ابن عباس حكاه صاحب الاتقان ـ فهو تنزيل عزيز و قران مجيد بتجمجم دون نصاعته و براعته و فصاحته و بلاغته مصاقع العالم و خطباء العرب و العجم حتى اخرس ناطقهم و غيض شقاشقهم فأضحوا لطلاوته و حلاوته حيارى و سرت فيهم حميا رحيقه فتراهم سكارى و ما هم بسكارى و كان كما قال قائلهم ـــه

و عينان قال الله كونا فكانتا فعولان بالالباب ما يفعل الخمر

و اين انت من قول و ليد بن المغيرة اذ سمع منه صلى الله عليه و سلم آيات من اوائل حم السجدة فقال و الله ان له لحلاوة و ان عليه لطلاوة و ان اسفله لمغدق و ان اعلاه لمورق و انه ليعلوا و لا يعلى و انه ليحطم ما تحته ، اه ـ و هو كتاب احكمت آياته من لدن حكيم خبير يتكفكف دون حكمه حكماء الشرق و الغرب و يتعتع من استنباط احكامه و فقهه و مسائله فقهاء العراق و الحجاز و الخراسان و القرطبة و يتلجلج من احساء ما حواه من نظام تهذيب النفوس و نواميس تربيـــة العالم فلاسفة العصر و عقلاء الزمان و لله درالشيخ المحدث الحافظ تقى الدين السبكى رحمه الله فيما انشد فى ذيل جواب للشيخ صلاح الدين الصفدى رحمه الله ـــه

لأسرار آيات الكتاب معان سنا برقها يعنولـه القرآن

سروراً وا بهاجاً و صولا على العلى فشكرا لمن اولى بديع بيان

و كم من كناس فى حمى مخدّر و ليس له بالشاردات يدان
فذاك الذى يرجى لايضاح مشكل به الله دو الفضل العظيم حبانى
فصلى عليه الله ما ذرّ شارق تدق فلا تبدوا لكل معان
اذا بارق منها لقلبى قد بدا كانى على هام السماك سمانى
و ان جنانى فى تموّج ابحر الى ان ارى اهلا ذكى جنان
منای سليم الذهن ريضٌ ارتوى و يقصد للتحرير عند عيان
بجاه رسول الله قد نلتُ كل ما و سلم ما دامت له الملوان
و فيها لمرتاض لبيب عجائبُ هممت قرير العين بالطيران
و هاتيك منها قد ابحت كما ترى من العلم فى قلبى تمدّ لسانى
فيصطاد منى مايطيق اقتناصه بكل علوم الخلق ذو لمعان
و كم لىَ فى الآيات حسن تدبّر أتى و سيأتى دائماً بأمان

سردت هذه الأشعار كلها حيث لم يدعنى حلاوتها الا ان اتيت برمّتها حكاها ابنه بهاؤ الدين السبكى فى عروس الافراح .

فلما كان كلام الله تبارك و تعالى من البلاغة فى غاية ليس ورائها غاية و من المعارف و العلوم و الحقائق و الاسرار بمنزلة قاصية كلت دونها العراب و المهارى و من الاحكام و نواميس النظام و تربية النفوس و تهذيب الاخلاق و تزكية القلوب و الارواح فى شأ و بعيد ، انقطعت دونها مطامح الانظار و مطارح الافكار و ما سواها من البدائع و الروائع و الخصائص و المزايا لا يحصى .

فأماثل الملة الاسلامية قد صرفوا اعمارهم المباركة و انفاسهم الطاهرة

فى كشف اسراه من وجوه خرائد فأبرزوا ما فى محاسنها من سبحات الانوار ـ و أفاضل الامة المحمدية بذلوا جهودهم الفائزة فغاصوا فى بحره المحيط فاخرجوا الدر المنشور و الجوهر المنظوم و اتوا بنظم الدرد من الدر اللقيط فهذا الشيخ ابو عبد الله محمد بن عبدالرحمن البخارى الحنفى الملقب بالزاهد العلاء فى طبقة شيوخ صاحب الهداية المتوفى سنه ٥٤٦ ﻫ ألف تفسيراً يزيد على الف جزء حكاه الشيخ قاسم بن قطلوبغا الحنفى فى تاج التراجم ، و هذا الشيخ ابو يوسف عبدالسلام بن محمد القزوينى المتوفى سنه ٤٨٣ ﻫ صنف تفسيراً فى ثلث مائة مجلد سماه « حدائق ذات بهجة » و قيل فى خمسمائة مجلدات حكاه صاحب كشف الظنون ، و هذا الامام محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنه ٣١٠ ﻫ ألف تفسيراً للقرآن فى ثلاثين الف ورقة ثم اختصره فى ثلاثة الآف ورقة كما حكاه صاحب الكشف عن الطبقات الكبرى للشيخ تاج الدين السبكى و هوا لمطبوع اليوم بأيدينا فى ثلاثين جزءً ، فيكون التفسير الاول فى ثلثمائة مجلد مثل الاجزاء الثلثين المطبوعة ـ و هذا الشيخ الامام القاضى ابو بكر بن العربى المتوفى سنه ٤٦٨ ﻫ انشأ تفسيراً فى ثمانين الف ورقة كما قاله فى كتابه القبس و رآه بعض الفضلاء فى خزانة السلطان ابى عنان فى ثمانين مجلداً حكاه صاحب الديباج المذهب فى معرفة اعيان المذهب و هذا شيخهم الاكبر أعرف اهل المغرب الطائى الاندلسى المتوفى سنه ٦٢٨ ﻫ صاحب الفتوحات المكية فسر القرآن فى ستين سفر ابلغ فيه الى سورة الكهف ـ و هذا الشيخ جمال الدين ابو عبد الله الحنفى المقدسى المعروف بابن النقيب المتوفى سنه ٦٩٨ ﻫ

صنف تفسيراً فى خمسين مجلد و نيف سماه التحبير و التجبير لاقوال ائمة التفسير فى معانى كلام السميع البصير ذكره صاحب كشف الظنون و قال الكفوى فى ثمانين مجلد و لم يسبق اليه و قال مجير الدين الحنبلى فى تاريخ القدس فى تسعة و تسعين مجلد جمع فيه خمسين مؤلفا فى التفاسير كما حكى الفاضل اللكنوى فى الفوائد البهية و هذا الشيخ ابوالقاسم الاصبهانى المتوفى سنه ٥٣٥ ﻫ له تفسير فى ثلاثين مجلداً ـ و هذا الشيخ شمس الدين ابو المظفر المتوفى سنه ٦٥٤ ﻫ الف تفسيراً فى ثلثين مجلداً و هذا الشيخ مفضل بن سلمة الحنفى من علماء القرن الثالث له تفسير فى نيف و عشرين جزء سماه ضياء القلوب فى معانى القرآن ذكره ابن النديم و هذا ابو بكر محمد بن الحسن الانصارى النقاش له كتاب التفسير الكبير فى اثنى عشر الف ورقة ذكره ابن النديم ، و هذا ما بلغ اليه علمى القاصر من التفاسير الكبيرة جداً و اما التفاسير فى عشرة اجزاء فما فوقها بقليل او ما دونها بقليل ، فاكثر من ان يستقصى ، فهكذا أعيان الامة فى القديم و الحديث سعوا فى ابراز علومه و اسراره بالسعى الحثيث بيد ان كل اناء يترشح بما فيه خاض كل منهم فيما شغف به فؤاده فالمحدث سرد روايات الحديث و طرق التحديث كابن جرير فى تفسيره و السيوطى فى الدر المنثور و غيرهما و الفقيه دخل فى غمار الاستنباط و استخراج الاحكام كالقرطبى و غيره و النحوى غاص فى وجوه اعرابه و طرق تراكيبه و تركيب اساليبه كابى حيان فى بحره و نهره ، و البيانى اولع باظهار اعجازه فى اطنابه و ايجازه و ابداء المحاسن فى مقاطعه و مطالعه و التنبيه ببدائعه و روائعه كالزمخشرى فى كشافه و ابى سعود فى ارشاده

ارشاده و المتكلم جال فى كلامه كالفخر الرازى سلكه فى مفاتيحه بيدانه أودع فيه جواهر غالية من مهمات شتى ، و المنطقى همه فى ترتيب الأقيسة و البحث عن الرسوم و الحدود كما فعله ابن سينا فى تفسير سورة الاخلاص و الفليسوف العصرى مكابدته فى ابراز ما حوته الآيات الربانية من اسرار الكونية و البدائع العنصرية و الغرائب الطبيعية كالشيخ الجواهرى الطنطاوى حشا تفسيره بغرائب الطبعيات و عجائب الفلكيات و العنصريات حتى يحسّ بادى الرأى كأن القرآن نزل لذلك فكل نفض جرابه و وطابه و فرّغ كنانته و جعابه و كان هذا قدراً مقدراً من الله العلى الحكيم ليستبين على رؤس الاشهاد انه كلام لا تنقضى عجائبه و لينجلى كالذكاء فى كبد السماء ما اخبر به الصادق المصدوق الامين صلى الله عليه و سلم و هذه اطراف بعضها اهمّ من بعض و يرتجى ان تكون التفاسير الكبيرة ذكرت قبلها جامعة لسائر الاطراف المهمة مستوعبة للمزايا استيعاباً على ما انتهت اليه أبصارهم و بصائرهم نعم و لمفتى البغداد السيد المحقق الحنفى الآلوسى منة على رقاب العلماء بتفسيره روح المعانى فأنه أجمع تفسير فى تفاسير المتداولة بأيدى اهل العلم اليوم رواية و دراية ، فقها و حديثا ، فصاحة و بلاغة ، اعراباً و لغة ، كلاماً و تصوفاً متناسق المبانى متلائم المعانى فكله دُرَرٌ و غرر جعله الله له خير ذخر له يوم يقوم الناس لرب العلمين و حدثنى صديق الفاضل الذكى مولانا محمد لطف الله الفشاورى عن امام العصر شيخنا المترجم رحمه الله انه قال قد بلغت تفاسير القرآن المؤلفة الى مأتى الف ، اهـ نعم اذا كان الكتاب كتاب الله سبحانه فجرى ان يكون هذا شانه ، ثم اذا كانت هذه علوم

علماء الامة بالقرآن فما ظنك بعلوم اجلاء الصحابة بالقرآن و يكشف عن هذا ما روى انه اقام ابن عمر على حفظ القرآن ثمانين سنة رواه مالك فى الموطا و ماروى عن مجاهد انه يقول عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة حكاه السيوطى و غيره ، ثم ما ظنك بعلوم استاثر الله بها من آناه علم الاولين و الآخرين اعلم اهل الارض من أتى و من يأتى و من أنزل به هذا الكتاب المستبين و هيهات ان تحوى صدور الامة ما اودع الله صدر نبى الامة خاتم النبين و سيد المرسلين صلى الله عليه و سلم اجمعين ثم ارق و اعرج من ذلك الى منزل هذا الكتاب الذى احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، فما ظنك بعلومه التى أستأثر الله بها نفسه فى غيبه المكنون و سره المخزون جل ذكره و عظم برهانه هيهات هيهات ، ان تكون نسبة للخلوق مع الخالق العليم الحكيم و قد اوضحه تمثيل خضر عليه السلام وهو تمثيل لا حقيقة فان القطرة و البحر متناهيان محدودان و علم الله سبحانه و تعالى اجل من ان يحد بالطول و العرض و سع كرسيه السماوات و الارض و كيف و قد قال الله سبحانه و تعالى ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربى و لو جئنا بمثله مداداً ﴾ (كهف) و قال سبحانه و تعالى ﴿ و لو ان ما فى الارض من شجرة اقلام و البحر يمده من بعده سبعة ابحر ما نفدت كلمات الله ، ان الله عزيز حكيم ﴾ (لقمان) فليس كل من فسر القرآن و لو فى مئين جزءاً بل فى الآف جزء انه احاط بجميع ما فيه علماً ، قال ابن ابى الدنيا علوم القرآن و ما يستنبط منه بحر لا ساحل له ، اه حكاه صاحب الاتقان ،

نعم احاظ قسمت و جدود ، و كل يحتطب فى حبله الممدود ـــه

و ما كل من قال القريض بشاعر و لا كل من عانى الهوى بمتيم

و قال آخر ـــه

و ما كل مخضوب البنان بثنة و لا كل مصقول الحديد يمانى

فالحق و الحق يقال انه لا يقوم الخلق الضئيل بأيفاء حق كلام الخالق الجليل ، فخطاهم تقاصرت و اطماعهم تقاعست و هممهم تقاعدت فبقيت علوم من علومه فى معادنه و لا تزال تبقى الا ما انعقدت المشية الازلية بأنزاله من صوب مزنه المدرار على قلوب عبيده و لا تزال غواديه تسقى من علومه الامة الى ما شاء الله و عسى ان تكون بقاع مجدبة من أطراف علومه يسقيها اذا اشتاقوا الى فيضانه و ربما يدور بالبال ان الله اظهر من مكنون علوم القرآن فى كل عصر ما كان اهل العصر فى فقر اليه و فاقة و حنت اليه النفوس بعد ما كانت مشتاقة . و هذا أمر ان اقنعت رأسك لمشاهدة ما فسر القرآن فى كلّ قرن من ادوار القرون المتطاولة من لدن عهد الصحابة الى عهدنا هذا و لحظت اليه لحظاً اجمالياً سيكشف لك عن رأيي القاصر و عسى ان يكون له وقع فى بعض القلوب و لو لا مخافة البعد عن غرضى لاعطيت القول حقه فى تنسيقه و تحقيقه غير ان لا ولى الألباب مقنعاً فى الاشارات و كفاية ، و عسى ان تسمح المعادن الاسلامية و غيرها بأبراز اكثر تلك الجواهر القيمة الغالية الى العالم كما تشاهد الآثار فى هذه الايام فكثير من دفائن الاسلام و خزائن علماء الامة التى ضنتّ بها الايام و ظن انه غالتها يد الحوادث الطارقة أغنت مكاتب القوم

بعد ما كانت تحن اليه مشتاقة مفتقرة و هكذا يتم الله سبحانه و تعالى حجته فى كل قرن على العلمين .

بيان ما هو الاغنى من تفسير القرآن

ثم اقول كل تلك المساعى المباركة للامة مما يحرى ان يقدر قدرها فى حنايا الضلوع و طوايا القلوب فانهم بذلوا ما عندهم فى تجليلة علوم القرآن و الذب عن بيضته و حرزته حسب مقدرتهم فلهم جزيل المنة عل رقاب الامة ممن جاء بعدهم بيد ان الأغنى و الاهم هو تفسير القرآن فى استبصار من حيوة نبينا صلى الله عليه و سلم و هديه و هداه قولا و فعلا و أشارة و دلالة فان حيوته الطيبة و سيرته المباركة الزكية شرح بديع لكتاب الله العزيز مما يشاهد بالابصار و تكفى فى ابداء الغرض المقصود من كثير من معاناة الافكار ، و قد أوضحه قول صديقة الامة بنت الصديق سيدتنا عائشة رضى الله عنها و عنه حيث قالت « كان خلقه القران » وكان يقول شيخنا امام العصر رحمه الله اذا تأمل المرأ بالبصيرة النافذة فى حديث رسول الله صلى الله عليه و سلم كشف له فى كثير من الأحاديث كان القرآن عين ثرثارة تبنع منها هذه الأحاديث حتى ترى فى كثير منها اشارات لطيفة الى تعبير القرآن و يفيد لذلك الدر المنشور فى التفسير بالمأثور للشيخ جلال الدين السيوطى المتوفى سنه ٩١١ ﻫ ما لا يفيد غيره ، يقول الراقم و يؤيد ذلك ما حكاه السيوطى فى الاتقان بقوله و قد قال الشافعى رحمه الله كل ما حكم به رسول الله صلى الله عليه و سلم فهو ما فهمه من القرآن قال تعالى ﴿انا انزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما اراك الله﴾ اه ـ وكان يقول شيخنا

شيخنا رحمه الله يكون مراد القرآن مغلقاً ما لم يرجع الى الحديث و لم يجعل شرحا له ، و هكذا يكون غرض الحديث مغلقاً ما لم يرجع الى الفقه و لم يدرك به حقيقة الأمر ، اه ـ و قال الحافظ ابو عمر بن عبد البر القرطبي المتوفى سنه ٤٦٣ ﻫ فى كتاب التقصى فيما حكى عنه الشيخ العارف عبدالرحمن الثعالبي الجزائرى المتوفى سنه ٨٧٥ ﻫ من تلامذة الحافظ ولى الدين العراقى و ابن مرزوق فى الجواهر الحسان فى تفسير القرآن ما نصه و أولى الامور بمن نصح نفسه و ألهم رشده معرفة السنن التى هى البيان لمجمل القرآن بها يوصل الى مراد الله تعالى من عباده فيما تفيدهم من شرائع دينه الذى به الابتلاء و عليه الجزاء فى دارالخلود و البقاء التى يسعى لها الألباء و العقلاء و العلماء و الحكماء فمن منّ الله عليه بحفظ السنن و القرآن فقد جعل بيده لواء الايمان فان فقه و فهم و استعمل ما علم دعى فى ملكوت السماوات عظيما و نال فضلا جسيما ، اه ـ ثم الاهم تفسيره فى استنارة من انوار حيوة الصحابة رضى الله عنهم فانهم نجوم الامة و هداة الملة و انهم اول المخاطبين به و اول من أمروا بمعروفه و نهوا عن منكره من الامة و اول من سألوا عن متشابهه و مشكله و اول من صدعوا بمبهمه و مجمله ، و اول من كشفوا عن غريبه و غامضة و اول من علموا شان نزوله و اطلعوا على اغراض تنزيله و انهم كما وصفهم عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه بقوله أولئك اصحاب محمد صلى الله عليه و سلم افضل هذه الامة و ابرها قلوباًو أعمقها علماً و اقلها تكلفا اختارهم الله لصحبة نبيه و لاقامة دينه فاعرفوا لهم فضلهم و اتبعوا على اثرهم و تمسكوا بما استطعتم من اخلاقهم و سيرتهم فانهم على الهدى

المستقيم ، اه ـ و كما قال فيهم الامام عمر بن عبدالعزيز ، فارض لنفسك ما رضى به القوم لا نفسهم فانهم على علم وقفوا و ببصر نافذ قد كفوا و هم على كشف الامور كانوا اقوى و بفضل ما كانوا فيه أولى فان كان الهدى ما انتم عليه سبقتم اليه و لئن قلتم انما احدث بعدهم ما احدثه الا من اتبع غير سبيلهم و رغب بنفسه عنهم فانهم هم السابقون فقد تكلموا فيه بما يكفى و وصفوا منه ما يشفى فما دونهم من مقصر و ما فوقهم من محسر و قد قصر اقوام دونهم فجفوا وطمح عنهم اقوام فغلوا و انهم بين ذلك لعلى هدى مستقيم ، اه رواه ابو داؤد فى سننه من باب لزوم السنة ـ و السابقون فى هذه الحلبة الخلفاء الراشدون و لا سيما على رضى الله عنه ثم ابن عباس ترجمان القرآن و حبر الامة و ابن مسعود ذلك الكنيف[1] الذى اوثر به اهل القادسية ، قال صاحب الجواهر الحسان فامّا صدر المفسرين و المؤيد فيهم فعلىّ بن ابى طالب رضى الله عنه و يتلوه عبدالله بن عباس رضى الله عنهما وهو تجرد للامر وكمله و تتبعه العلماء عليه كمجاهد و سعيد بن جبير و غيرهما و المحفوظ عنه فى ذلك اكثر من المحفوظ عن علىّ بن ابى طالب و قال ابن عباس ما أفدت من تفسير القرآن فعن على بن ابى طالب وكان على بن ابى طالب يثنى على تفسير ابن عباس و يحض على الأخذ عنه وكان ابن مسعود رضى الله عنه يقول نعم ترجمان القرآن عبد الله

(١) اشارة الى ما قاله عبدالله بن عمرو فى مدحه لما ذكر عنده فقال كنيف ملئ علماً آثرت به اهل القادسية كما فى طبقات ابن سعد ص ١٥ جلد ٢ طبع ليدن ـ

بن عباس رضى الله عنه و هو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه و سلم اللهم فقهه فى الدين و علمه التأويل و حسبك بهذه الدعوة و يتلوه عبد الله بن مسعود رضى الله عنه و ابى ابن كعب رضى الله عنه و زيد بن ثابت رضى الله عنه و عبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه و كل ما اخذ من الصحابة فحسن متقدم و من المبرزين فى التابعين الحسن بن ابى الحسن و مجاهد و سعيد بن جبير و علقمة و قد قرأ مجاهد على ابن عباس رضى الله عنه قراءة تفهم و وقوف عند كل آياة و يتلوه عكرمة و الضحاك بن مزاحم و ان كان لم يلق ابن عباس و انما اخذ عن ابن جبير وا ما السدى فكان عامر الشعبى يطعن عليه و على ابى صالح لانه كان يراهما مقصرين فى النظر ثم حمل تفسير كتاب الله عز و جل عدول كل خلف و الف الناس فيه كعبد الرزاق و المفضل و على بن ابى طلحة و البخارى ، ثم ان محمد بن جرير الطبرى رحمه الله جمع على الناس اشتات التفسير و قرب البعيد و شفى فى الاسناد و من المبرزين فى المتأخرين ابو اسحق الزجاج و ابو على الفارسى[1] فان كلامهما منخول و اما ابو بكر النقاش و ابو جعفر النحاس رحمهما الله فكثيراً ما استدرك الناس عليهما وعلى سنهما مكى بن ابى طالب و ابو العباس المهدوى متقن التاليف و كلهم مجتهدون ما جور رحمهم الله و نضر وجوههم ، اه و من شاء المزيد فى هذا الموضوع فليرجع الى ما ذكره ابن النديم فى كتاب الفهرست من الاوائل و لا سيما من ص ٥٠ الى ص ٥٩ المطبوع

(١) حنفى كما فى تاج التراجم توفى قبل السبعين و ثلاث مائة كما فى فهرست ابن النديم - ١٢ منه

بمصر و ما ذكره صاحب كشف الظنون من علم التفسير و ما ذكره الشيخ جلال الدين السيوطى فى اتقانه من النوع الثمانين و بالجملة الصحابة نخبة الامة امتازوا بالفهم التام و العلم الصحيح و العمل الصالح فهم الراسخون فى العلم و هم السابقون فى الفهم و هم المفردون فى العمل و قال صلى الله عليه و سلم سبق المفردون و حكى السيوطى فى النوع الثامن و السبعين من الاتقان عن الحافظ ابن تيمية انه يجب ان يعلم ان النبى صلى الله عليه و سلم بين لاصحابه معانى القرآن كما بين لهم الفاظه فقوله تعالى ﴿ لتبين للناس ما نزل اليهم ﴾ يتناول هذا و هذا ـ و قد قال ابو عبدالرحمن السلمى حدثنا الذين كانوا يقرؤن القرآن كعثمان بن عفان و عبدالله بن مسعود و غيرهما انهم كانوا اذا تعلموا من النبى صلى الله عليه و سلم عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم و العمل قالوا فتعلمنا القرآن و العلم و العمل جميعاً و لهذا كانوا يبقون مدّة فى حفظ السورة و قال انس رضى الله عنه كان الرجل اذا قرأ البقرة و آل عمران جدّ (اى عظم) فى اعيننا رواه احمد فى مسنده ، اه و قال العارف ابن ابى جمرة المحدث عن على رضى الله عنه انه قال لوشئت ان أوقر سبعين بعيراً من تفسير ام القرآن لفعلت ، اه ـ ثم بين ما يقربه الى الافهام حكاه السيوطى رحمه الله ـ قال الراقم و قوله تعالى ﴿ هو الذى بعث فى الاميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته و يزكيهم و يعلمهم الكتاب و الحكمة و ان كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ (من الجمعة) و قوله تعالى ﴿ لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من انفسهم يتلوا عليهم آياته و يزكيهم و يعلمهم الكتاب و الحكمة و ان كانوا من قبل

لفى

لفى ضلال مبين ﴾ (من آل عمران) و قوله تعالى فى حكاية دعوة سيدنا ابراهيم عليه الصلوة و السلام ﴿ ربنا و ابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم اياتك و يعلمهم الكتاب و الحكمة و يزكيهم انك انت العزيز الحكيم ﴾ (من البقرة) أوضح حجة على ما قاله ابن تيمية رحمه الله و غيره كيف لا و ان القرآن العظيم انزله الله للتدبر فى آياته حيث قال تعالى ﴿ كتاب انزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته ﴾ الآية و ذمّ قوما بعدم التدبر فى قوله تعالى ﴿ افلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها ﴾ فالصحابة اولى الامة بالتدبر فيه و العمل به و اذا لم يكن الصحابة بهذه المثابة فمن يكون بعدهم و هم كما قال قائلهم ــه

لهم شمس النهار اذا استقلت و نور ما يغيبه العماء ،
هم حلوا من الشرف المعلى ومن حسب العشيرة حيث شاؤا
من البيض الوجوه نجوم هدى لوانك يستضيئ بهم اضاءوا
فلو ان السماء دنت لمجد و مكرمة دنت لهم السماء

و من زيادتى ارتجالا ــه

بحار معارف و عيون علم بيانهم من الجهل الشفاء

و هذا موضوع و اسع ليس هذا موضع احصائه من شاء فليراجع الى الاتقان و غيره من المظان نعم كثيراً مما بينته و حاولت بيانه كان يخطر ببالى الفاتر و فكرى القاصر ثم رأيته فى كلام الاكابر الذين لهم عند الله خير ذخائر و قد قيل قد يتوارد الخاطر على الخاطر كما يقع الحافر على الحافر و فى كثير من المواضع اتفق تعبيرى مع تعبيرهم و تصويرى مع تصويرهم

الا فى يسير من نهج الانشاء و مسلك التحبير و التقديم و التاخير فلله الحمد حمدا كثيراً و ما هو الامن بركات روحانيتهم و من حسن الظنّ بهم و انهم سابقوا غايات و اصحاب آيات نفعنى الله تعالى بعلومهم و معارفهم و حشرنى من فضله فى زمرتهم و انما اطلت اطالة فى هذا لما رأيت ان كثيراً ممن يحاولون التفسير فى هذا الايام يحسبون انهم فى غنية من الحديث و الآثار و يتمسكون بمحض اللغة و التاريخ و يغمضون عن السنة و اجماع الامة فيقولون بهما فيما و افقا هوا هم و يذرون حثيما خالفا رأيهم فيقولون ما يشاءون و يتبعون الهوى و هذا اول باب للالحاد و الرّدة كأبى الكلام احمد الدهلوى فى ترجمان القرآن جعل التاريخ المضطرب البنيان و رأيه الضئيل مداراً لفهم التزيل و حلّ نظمه الجليل و سياتى الكلام على تفسيره فانتظره و الموفق هو الله الهادى الى الحق .

شروط المفسر و التفسير و بيان التفسير بالرأى

و يناسب الآن ان يستوفى اطراف ما ذكرته من شروط المفسر و التفسير و بيان التفسير بالرأى و قد اطال القوم فى ذلك و لهم الفضل و المنة علينا و اريد بتوفيقه تعالى ان اذكر مما قالوا بنخبه و زبده من غرر النقول و درر الاقوال ما تكون واسطة قلادتها و درة نظامها و عسى ان يجلو العيون و يشفى النفوس و الله و لى التوفيق و الاعانة ، قال السيوطى اختلف الناس فى تفسير القرآن هل يجوز لكل احد الخوض فيه ؟ فقال قوم لاحد ان يتعاطى تفسير شئ من القرآن و ان كان عالماً اديباً متسعاً فى

فى معرفة الادلة و الفقه و النحو و الاخبار و الآثار و ليس له الا ان ينتهى الى ماروى عن النبى صلى الله عليه و سلم و منهم من قال يجوز تفسيره لمن كان جامعاً للعلوم التى يحتاج اليها المفسر و هى خمسة عشر علماً اللغة و النحو و التصريف و الاشتقاق و المعانى و البيان و البديع و القرأة و اصول الدين و اصول الفقه و اسباب النزول و القصص و الناسخ و المنسوخ و الفقه و الاحاديث المبينة لتفسير المجمل و المبهم و علم الموهبة وهو علم يورثه الله لمن عمل بما علم و اليه الاشارة بحديث من عمل بما علم يورثه الله علم مالم يعلم ، انتهى ملخصاً و ملتقطاً و بين السيوطى رحمه الله وجوه الاحتياج إلى هذه العلوم فى تفسير القرآن و هى بادية بادى الرأى فكفينا ذكرها و قال نقلا عن ابن ابى الدنيا فهذه العلوم التى هى كالآلة للمفسر لا يكون مفسراً الا بتحصيلها فمن فسر بدونها كان مفسراً بالرأى المنهى عنه و اذا فسر مع حصولها لم يكن مفسراً بالرأى المنهى عنه ، اهـ قال الراقم التطبيق بين القولين و ارجاع الاول الى الثانى غير عسير فان ما ثبت و صح عن النبى صلى الله عليه و سلم و لم يعارضه شئ مثله فالمصير اليه متعين عند الكل و اذا لم يصح عنه صلى الله عليه و سلم شئ و كان امراً مما يفتقر الى الكشف عنه و لم يكن من المتشابه الذى يؤمن به اجمالا و يفوض حقيقة و تفصيله الى الله و لم يكن امراً غامضاً لا ينحل بمكابدة الافكار و صار كالمتشابهات بل يبلغ الى معناه كل أحد من اهل العلم و يتعاطى فهمه اهل اللغة فيسوغ القول فيه لكل من كان متضلعاً من تلك العلوم التى احصوها و لابد ، و كيف لا و الكتاب الذى انزل ذكراً

للناس و شفاء لما فى الصدور كيف يعلق بين السماء و الارض و قد قال تعالى ﴿ لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾ و لو كان الامر كما يتبادر من القول الاول لم يعلم شئ من القرآن بالاستنباط و لم يفهم قدر كثير من كتاب الله فالاحسن ان يجعل المحطّ واحداً فى القولين فالامر اذن هَينٌ لينٌ و يرتفع الخلاف به من البين ويؤيّدُنى و الله اعلم ما قال الزركشى رحمه الله انّ القرآن قسمان قسم و رد تفسيره بالنقل و قسم لم يرد و الاول اما ان يرد عن النبى صلى الله عليه و سلم او الصحابة او رؤس التابعين فالاول يبحث فيه عن صحة السند و الثانى ينظر فى تفسير الصحابى فان فسر من حيث اللغة فهم اهل اللسان فلا شكّ فى اعتماده او بما شاهده من الاسباب و القرائن فلا شك فيه و حينئذ ان تعارضت اقوال جماعة من الصحابة فأن امكن الجمع فذاك و ان تعذر قدّم ابن عباس رضى الله عنه لان النبى صلى الله عليه و سلم بشره بذلك حيث قال اللهم علمه التأويل و قد رجح الشافعى رحمه الله قول زيد فى الفرائض لحديث أفرضكم زيد و اما ما ورد عن التابعين فحيث جاز الاعتماد فيما سبق فكذلك و الا وجب الاجتهاد و اما ما لم يرد فيه نقل فهو قليل و طريق التوصل الى فهمه النظر الى مفردات الفاظ من لغة العرب و بدلالتها و استعمالها بحسب السياق و هذا يعتنى به الراغب رحمه الله كثيراً فى كتاب المفردات ، اه حكاه السيوطى و يؤيدنى ما نقل السيوطى رحمه الله فى موضع آخر من الاتقان عن المدخل بقوله فما ورد بيانه من صاحب الشرع ففيه كفاية عن فكرة و ما لم يرد عنه بيانه ففيه حينئذ فكرة اهل العلم بعده ليستدلوا بما ورد

بيانه

بيانه على ما لم يرد اه ـ

التفسير بالرأى

و أعلم ان للعلماء رحمهم الله كلمات مختلفة فى بيان التفسير بالرأى الذى قصده النبي صلى الله عليه و سلم فى قوله من تكلم فى القرآن برأيه فاصاب فقد اخطأ اخرجه النسائى و ابو داؤد و الترمذى و فى رواية من قال الخ و فى اخرى من فسر القرآن و الذى اراده بقوله من قال فى القرآن بغير علم فليتبوّأ مقعده من النار خرجه ابو داؤد ـ فالحديث الاول تكلموا فى صحته و بعد ما صح فقال البيهقى اراد و الله اعلم الرأى الذى يغلب من غير دليل قام عليه و اما الذى يشده برهان فالقول به جائز و معنى قوله صلى الله عليه و سلم فأصاب فقد اخطأ على ما فى المدخل و حكاه السيوطى اى فقد اخطأ الطريق فسبيله ان يرجع فى تفسير الفاظه الى اهل اللغة و فى معرفة ناسخه و منسوخه و سبب نزوله و ما يحتاج الى بيانه الى اخبار الصحابة الذين شاهدوا تنزيله و ادّوا الينا من السنن ما يكون بياناً لكتاب الله ، اه ـ او يكون المراد به من قال فيه برأى من معرفة منه بأصول العلم و فروعه فيكون موافقته للصواب ان رافقه من حيث لا يعرفه غير محمودة ، اه ـ و اما الحديث الثانى فما قاله الانبارى فى احد معنييه من قال فى القرآن قولا يعلم ان الحق غيره فليتبوأ مقعده من النار ، اه ـ و قال ابن النقيب الحنفى جملة ما تحصل فى معنى حديث التفسير بالرأى خمسة اقوال احدها التفسير من حصول العلوم التى يجوز معها التفسير ، الثانى تفسير المتشابه الذى

لا يعلمه الا الله ، الثالث التفسير المقرر للمذهب الفاسد بأن يجعل المذهب اصلا و التفسير تابعاً فيرد اليه بأيّ طريق امكن و ان كان ضعيفاً و الرابع التفسير بأنّ مراد الله كذا على القطع من غير دليل الخامس التفسير بالاستحسان و الهوى ، اه ـ انتقيت هذه الاقوال و التقطها من الاتقان ، قال الراقم و القول الفصل عندى ما افاده الخازن فى تفسيره و بلغنى ان شيخنا امام العصر رحمه الله استحسنه و لفظه قال العلماء و النهى عن القول فى القرآن بالرأى انما ورد فى حق من يتأول القرآن على مراد نفسه و ما هو تابع لهواه و هذا لا يخلو اما ان يكون عن علم او لا فان كان عن علم كمن يحتج ببض آيات القرآن على تصحيح بدعته و هو يعلم ان المراد من الآية غير ذلك لكن غرضه ان يلبس على خصمه بما يقوى حجته على بدعته كما يستعمله الباطنية و الخوارج و غيرهم من اهل البدع فى المفاسد الفاسدة ليغرّوا بذلك الناس و ان كان القول فى القرآن بغير علم لكن عن جهل و ذلك بان تكون الآية محتملة لوجوه فيفسرها بغيرما تحتمله من المعانى و الوجوه فهذان القسمان مذمومان و كلاهما داخل فى النهى و الوعيد الوارد فى ذلك ، فاما التأويل و هو صرف الآية على طريق الاستنباط الى معنى يليق بها محتمل لما قبلها و ما بعدها و غيره مخالف للكتاب و السنة فقد رخص فيه اهل العلم فان الصحابة رضى الله عنهم قد فسروا القرآن و اختلفوا فى تفسيره على وجوه و ليس كل ما قالوه سمعوه من النبى صلى الله عليه و سلم و لكن على قدر ما فهموا من القرآن تكلموا فى معانيه و قد دعا النبى صلى الله عليه و سلم لابن عباس فقال اللهم فقهه فى الدين و علمه

التاويل فكان اكثر ما نقل عنه التفسير ، اه تفسير الخازن من المقدمة ، و قد احسن الثعالبي الجزائرى فى الجواهر الحسان ص ١٢ ج ١ فى شرح الحديث الاول حيث قال و معنى هذا ان يسأل الرجل عن معنى فى كتاب الله فيتسور عليه برايه دون نظر فيما قال العلماء او اقتضته قوانين العلوم كالنحو و الاصول و ليس يدخل فى هذا الحديث ان يفسر اللغويون لغته و النحاة نحوه و الفقهاء معانيه و يقول كل واحد باجتهاده المبنى على قوانين علم و نظر فان هذا القائل على هذه الصفة ليس قائلا بمجرد رأيه وكان جلة من السلف كسعيد بن المسيب و عامر الشعبي و غيرهما يعظمون تفسير القرآن و يتوقفون عنه تورعاً و احتياطاً لانفسهم مع ادراكهم و تقدمهم وكان جلة من السلف كثير عددهم و هم يفسرونه و هم ابقوا على المسلمين فى ذلك رضى الله عنهم اجمعين اه ـ و فى هذه الاقوال مقنع و كفاية للبصير و الله الموفق .

تنبيه مهم فى اقوال اهل التصوف فى تفسير القرآن و الفرق بين تأويلات الباطنية الملاحدة و تأويلات الصوفية

و يحسن ان يذيل ما ذكرته بتنبيه مهمّ فى حق الزائغين الذين يتمسكون باقوال بعض الصوفية و يمرقون بها من الدين كما يمرق السهم من الرمية يحرفون آيات الله من غير علم و برهان و يحرفون الكلم من بعد مواضعه من غير سلطان فليعلم انه قال النسفى رحمه الله فى عقائده النصوص

على ظاهرها و العدول عنها الى معان يدعيها اهل الباطن الحاد ، قال التفتازانى فى شرحه سميت الملاحدة باطنية لادعائهم ان النصوص ليست على ظاهرها بل لها معان باطنية لا يعرفها الا المعلم و قصدهم بذلك نفى الشريعة بالكلية قال و اما ما يذهب اليه بعض المحققين من ان النصوص على ظواهرها و مع ذلك فيها اشارات خفية الى دقائق تنكشف على ارباب السلوك يمكن التطبيق بينها و بين الظواهر المرادة فهو من كمال الايمان و محض العرفان ، اه ـ قال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله فى كتابه « لطائف المنن » اعلم ان تفسير هذه الطائفة لكلام الله و لكلام رسوله بالمعانى الغريبة ليس احالة للظاهر عن ظاهره و لكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جلبت الآية له و دلت عليه فى عرف اللسان و ثمّ افهام باطنة تفهم عند الآية و الحديث لمن فتح الله قلبه و قد جاء فى الحديث لكل آية ظهر و بطن فلا يصدنك عن تلقى هذه المعانى منهم ان يقول لك ذوجدل و معارضة هذا احالة لكلام الله و لكلام رسوله فليس ذلك باحالة و انما يكون احالة لو قالوا لامعنى للآية الا هذا و هم لم يقولوا ذلك بل يقر الظواهر على ظواهرها مراداً بها موضوعاتها و يفهمون عن الله تعالى ما افهمهم ، اه حكاه صاحب الاتقان ـ قال الراقم و الاخبار المروية فى ذلك كثير ّما يؤزر ذلك المعنى و قوله صلى الله عليه و سلم لا تنقضى عجائبه و لا تبلغ غايته و قوله صلى الله عليه و سلم فيه نبأ ما قبلكم و خبر ما بعدكم و قوله صلى الله عليه و سلم ان القرآن ذوشجون و فنون و ظهور و بطون و غيرها من الاخبار المرفوعة و الآثار الموقوفة كل ذلك مما يؤيّده تائيداً ، و اثر علىّ رضى الله عنه

انقطع

انقطع الوحى الا فهم اعطيه رجل فى القرآن او كما قال اوضح حجة فى هذا الباب و قد مرقول الشافعى من قبل و اثر ابن عمر و مجاهد قد اسلفته فتذكره ، و لو كان علوم القرآن و مقاصده منحصرة على مادل عليه منطوقه و لم تكن هناك دقائق و لطائف من ارباب الحقائق و باب الاشارات و المعارف ما يدل عليه مفهوم القرآن و يشير اليه فى عرض من اطراف بلاغته لما كان مزية لعالم على عالم و لمتقدم على متاخر و لا لبعض المتاخرين على بعض المتقدمين و ما ذا يكون معنى قول ابن مسعود رضى الله عنه فى حق الصحابة و اعمقها علماً فتثبت هداك الله فأن الامر بين و الفرق واضح ثم مع ذكر اهل الحق من ارباب الحقائق لطائف القرآن و تاويلاته التى تضمنت بواطن آياته لم يؤثر عن احد منهم تركه العمل و الاعتقاد بظواهرها فكيف يلتبس الامر و هو ابين من صديع الفجر فأرباب الحقائق هم الراسخون فى العلم الصادقون فى العمل و اما الباطنية المنكرون عن الشرائع الصارفون عن الظواهر هم الزائغون فى العلم و الكاذبون فى العمل فاولئك لهم شأنٌ و هؤلاء لهم شأن و تعرف كلا منهم بسيماهم و قد قال تعالى فى حق امثال الباطنية ﴿ و اما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة و ابتغاء تاويله ﴾ فأين ابتغاء الفطنة من ابتغاء الفتنة و اين ابتغاء الحق من ابتغاء الباطل ﴿ افمن يمشى مكبا على وجهه اهدى ام من يمشى سوّياً على صراط مستقيم ﴾ ــه

و ليس يصح فى الافهام شئ اذا احتاج النهار الى دليل

هذا و الله الهادى الى الحق و صلى الله تعالى على سيدنا و مولانا خير خلقه

محمد و آله و صحبه و تبعه اجمعين .

فائدة فى التفاسير المفيدة

و من الملائم فى خاتمة هذا الموضوع من المقدمة ان يذكر اسماء التفاسير التى يعوّل عليها و يكاد يستغنى بمطالعتها عن غيرها ايقاظاً و تبصرة لاخوانى طلبة العلم و الحق و ليعلم ان لكل تفسير مزية لا يساهمه فيها تفسير آخر و قلما يجبر تفسير ثمة تكون بفقد الاخر وكيف تنفع الشعفة فى الوادى الرغب و اين بَرض من عِدّ و انى الثمد من البحر الزاخر و انى رذاذ من الوابل الهام حيث امتاز كل منها بخصائص لا تكاد توجد فى الآخر فلا يغنى كتاب عن كتاب فى علم واحد و ان تكفل المتأخر لابحاث المتقدم بل لو اختصر احد كتاباً قلما يكون ان يستغنى به عن اصل الكتاب و هذا امر شهدت به عندنا التجربة القاطعة و نطق به الذوق و قام به البرهان الا ما شآء الله كيف و ان اختلاف الآراء ابين من فلق الصديع و تباين النزعات اجلى من النهار و حاجة كل امر أغير حاجة الآخر فقلما تتحد جهات الحاجات و قلما تتفق الآراء و النزعات على امر سواء بسواء فكم من شئ يفتقر اليه احد و يستغنى عنه آخر و رب كلمة يعتنى بها عالم دون آخر فلهذا يلزم كل من يعتنى بعلوم القرآن و يحاول فيها التبصر و الحذاقة الكاملة ان يطالع كل ما تسنى له و يتسر من التفاسير المؤلفة و لابد فان الموضوع خير كله و لا سيما ما افاده الاعيان المحققون و الاثبات الراسخون و ان كان مما يتعلق بسورة او سورتين بل آية او آيتين فيفتقدلها من تضاعيف مؤلفاتهم فى علوم

 و فنون

و فنون ماعدا التفسير و ينشدها كضالته الثمينة القدر من سائر المظان المختلفه فكم من مشكلات القرآن يظفر المرأ بحلها فى غير محلها و يفوز طالبها بأوفرحظ من حيث لا يرتجى ، و امثال هذه الدرر المبعثرة و اللآلى المنثورة توجد فى كثير من كتب المحققين كالامام حجة الاسلام الغزالى المتوفى سنه ٥٠٥ ﻫ و كالحافظ ابن القيمّ المتوفى سنه ٧٥١ ﻫ وهو فيهم سباق غايات قلما يعرو كتاب له من تفسير آية وكشيخه البحر الزاخر الحافظ ابن تيمية الحرانى المتوفى سنه ٧٢٧ ﻫ وكالشيخ ابى القاسم السيد الشريف المرتضى صاحب الامالى فى ثلثة اجزاء المتوفى سنه ٤٣٦ ﻫ و كالمحقق الوزير اليمانى صاحب ايثار الحق على الخلق وكتاب العواصم و القواصم وكتاب الروض الباسم من معاصرى الحافظ ابن حجر العسقلانى وكالشيخ بهاؤ الدين السبكى ابن تقى الدين المعاصر لابن تيمية فى كتابه عروس الافراح وكالامير يحيى بن حمزة اليمنى فى الطراز من علماء القرن التاسع و غيرهم من اعلام الامة و اعيان الملة ما يدور على علومهم رحى القوم و يدور فى خاطرى من برهة ان و فقنى الله سبحانه و تعالى لنظمت هذه الدرر المنثورة من كتب هؤلاء الجهابذة و الفطاحل و انما صدعت به ههنا ليكون الموفقون على بصيرة من الامر و الله الموفق و لما كان العمر نزر و الجوائح دثر و تقاعدت الهمم و تقاعست العزائم و الافكار تشعبت بها الاهواء فى أودية شتى و المساعى ذهبت هباء فاريد ان انبه الطلبة اخوانى من طلبة العلم على تفاسير من التفاسير المطبوعة المتداولة بين القوم و الرائجة اليوم ما لواراد احدان يقنع بها لكفته و لواستق من معينها و بحارها لأروته فيجد فيها ان شاء الله كفاء و كفاية

و رواء و سقاية و هى عندى التفاسير الاربعة **الاول** تفسير الحافظ عماد الدين بن كثير الشافعى الدمشقى من تلامذة الحافظ ابن تيمية رحمه الله المتوفى سنه ٧٧٤ ﻫ و تفسيره تفسير منخول عن تفسير ابن جرير و غيره رواية و دراية لا يكاد يوجد له نظير فى خصائصه فى تفاسير المحدثين قال شيخنا امام العصر رحمه الله لو كان يغنى كتاب عن كتاب لكان هو تفسير ابن كثير فانه اغنى عن تفسير ابن جرير و **الثانى** تفسير مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير للامام الكبير المحقق فخر الدين ابن خطيب الرى الشافعى المتوفى سنه ٦٠٦ ﻫ قال شيخنا رحمه الله لم أر مشكلا من مشكلات القرآن الا و الامام تنبه له وكان يقول ان الامام يغوص فى المشكلات بيد انه ربما لا يظفر بحل بعض المشكلات بحيث تطمئن به القلوب و تقتنع به النفوس وكان شيخنا رحمه الله يقول ان ما قيل فى حق تفسيره فيه كل شئ الا التفسير كما حكاه صاحب الاتقان هو حطّ عن قدره الجليل و منزلته السامية و لعله قول من غلبت عليه سرد الروايات فقط من غير ذكر لطائف القرآن و علومه و **الثالث** تفسير روح المعانى لمفتى بغداد اعلم اهل عصره السيد محمود الآلوسى الحنفى نابغة القرآن الثالث عشرة و مزاياه البارعة تجذب القلوب و محاسنه تأخذ بالألباب و عندى بمنزلة فتح البارى لصحيح البخارى فى غزارة المادة و نصاعة التعبير و براعة التحبير غير انه لما كان فتح البارى شرحاً لكلام مخلوق فقضى به الدين الذى كان على رقاب الامة من شرح الصحيح و وفاه حقه و كلام الله سبحانه و تعالى اجل من ان يقوم بأعباء حقه احد من البشر و ان استنفدوا فيه القوى و القُدر و الرابع

و الرابع تفسير الشيخ ابى السعود الحنفى مفتى السلطنة العثمانية خطيب المفسرين قاضى القضاة العلامة المفسر الفقيه محمد بن محمد العمادى المتوفى سنه ٩٥١ ﻫ المسمى بارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم اعتنى بصدع غرض نظم التنزيل فى تعبير رائق و تصوير فائق و هو يغنى فى كثير من المزايا عن الكشاف للامام الزمخشرى فهذه اربعة كتب اثنان للشافعيين و اثنان للحنفيين مما يكاد يقتنع بها مفسر قليل الفرصة و من حاول الاطلاع على العلوم الجديدة و الفنون الحديثة و بدائع الاكوان و غرائب التكوين و نواميس القدرة الالهية فليضم اليها تفسير جواهر القرآن الكريم للشيخ جوهرى الطنطاوى نعم رأيه فى نقد الحديث مما لا ينبغى ان يثق به احدٌ فربّما ينقد الحديث بمحض رأيه من غير ان يعول على شريطة اهله كذا افاده شيخنا رحمه الله و من شاء تقرير مقاصد القرآن و اغراضه فى اسلوب عصرى فليضم اليها اجزاء تفسير المنار للفاضل السيد رشيد رضا المرحوم غير انه لا ينبغى التعويل فى جميع ما يقوله و يزعمه و انه يحتاج الى انتقاء و تنبيه على أمور حاد قلم شيخه عن مسلك اهل الحق فيها و بالجمله كدر هذين التفسيرين الجواهر و المنار لا يمنع على الانتفاع بصفوهما نعم و لكن بين يدى المستفيد قول الحماسى ــه

و لا يغرنك صفو انت شاربه فربما كان بالتكدير ممتزجا .

و قول آخر ــه

قدّر لرجلك قبل الخطو موضعها فمن علا زلقاً عن غِرّة زلجا

هــذا ، و من اراد الاقتناع بأقلّ منها فليقتنع بغرائب الفرقان

للشيخ المحقق النيسابورى و هو ملخص مفيد من تفسير الامام الرازى الذى سلف ذكره مح زيادة حسنة مفيدة و بتفسير ابى السعود العمادى المذكور فهذان التفسيران يكاد يكتفى بهما رجل عديم الفرصة فى حل مطالب التنزيل العزيز و من رام الاقتصار بواحد و ان كان بمنزلة البرض من عِدّ و ثمد من ثرثارة فوارة فان رام تفسيراً مبسوطاً فعليه بروح المعانى ماسبق و صفه فانه أتى بزُبد الروايات و طرف الدراية و البلاغة و ان رام مختصراً ملخصاً فعليه بتفسير الجواهر الحسان للشيخ العالم العارف عبدالرحمن الثعالبى الجزائرى و هو مختصر نافع غاية النفع لخص فيه تفسير ابن عطية ابدع تلخيص و أتى بزيادات رائقة نافعة من نحو مائة مؤلف من علوم مختلفة فهى الآن جميعها ثمانية اسفار من التفسير فمن شاء فليكثر فان الموضوع خير كله و من اراد حل نظم القرآن الكريم فى لغة اردوية هندوستانية بأبدع اسلوب و افصح تعبير فى اقصر وقت فعليه بمطالعة الفوائد التفسيرية على القرآن مشائخنا شيخ العصر العارف مولانا محمود الحسن الديوبندى المتوفى سنه ١٣٣٩ ﻫ المدعو بشيخ الهند رحمه الله تعالى و محقق العصر الحاضر شيخنا و مولانا شبير احمد العثمانى اطال الله بقاءه و اوفر للامة روائه فانهما اتيا فيها بعجب العجاب فى حل نظم الكتاب و افصاح غرض التنزيل بكلمات كلها درر ذات بهاء و غرر ذات سناء و ربما لا تحل عقده من تصفح هذه المجلدات الكبيرة و تفقد هذه المادة الزاخرة و تراها قد حلت فيها بأخصر عبارة او ألطف اشارة فشكر الله مسعاهما الجميل و هى مما لا يستغنى عنها الفضلاء بحال فضلا عن طلبة العلم فى عهد التحصيل فانه ليس فى العربية فى كتب التفاسير

المطبوعة التى بأيدينا ما يخلفها او ينوب منابها او يعتاض عنها ، لا اقول انها غنية عن مراجعة تفاسير القوم بل اقول كما انها ليست غنية عنها كذلك التفاسير ليست غنية عنها .

شذرة من مآثر علماء الهند و لا سيما بعلماء ديوبند مما يتعلق بالتنزيل العزيز - و التنبيه على تفاسير أهل الحق و أهل الباطل

و لما بلغتُ الى هذا المقام ناسب ان ابوح بما لعلماء الهند ولا سيما لعلماء ديوبند من المنزلة القاصية فى خدمة القرآن و الحديث و الذب عن حريم الشريعة الاسلامية و الجهاد العملى و العلمى فى حرية الوطن و استخلاصه من اسارة الحكومة البرطانوية و بذر حمية الدين و الغيرة الاسلامية و نفخ روح النهضة الاسلامية و الحرية الوطنية فى قلوب اهل الهند من العوام و الخواص و انقاذها من مخالب الدولة الغادرة الخائنة الاجنبية و انها من كبرى ابين من فلق الصبح لا يكاد ينساها المورخ على تقادم الاعصار و انما اغرانى على ابراز هذه الخدمات الجليلة خفاءُها على اخواننا القاطنين فى البلاد العربية و ظلم بعض اهل الصحف و الاقلام فى اخفاءها و تد سيسها من غير ان يؤدّوا حق الجوار بنصفة و ديانة و ياللاسف اين الانصاف و اين الديانة طارت بها عنقاء مغرب و خالات الناس بالدهناء قليلة غير ان هذا الموضع ليس موضع استيفاء القول فيه فنقتصر على ايماضات و بروق تنبئهم على غوادى ماطلة و الله المستعان و الهادى الى الحق .

فاقول و من مآثر علماء الهند البحر الموّاج تفسير القرآن الكريم بالفارسية للفاضل العلامة شمس الدين الدّولت آبادى ثم الدهلوى من علماء القرآن الثامن الهجرى من اصحاب الشيخ القاضى عبد المقتدر الشريحى الكندى و منها تبصير الرحمن تفسير فى اربع مجلدات بالعربية للشيخ على بن احمد المهائمى المتوفى سنه ٨٣٥ ﻫ و مهائم بلدة على ساحل البحر فى قرب بمبائى و قد طبع بمصر و هو تفسير نفيس جيّد اعتنى فيه بربط نظم التنزيل و نظام السّور و فيه فوائد غريزة ، و منها التفسير المظهرى بالعربية للشيخ المحدث المحقق القاضى ثناء الله الفانى فتى من تلامذة الحجة الشاه ولى الله الدّهلوى صاحب الحجة الله البالغة و غيرها و هو تفسير بارعٌ و لا سيما فى بيان المذاهب الفقهية و تحقيقها و قد طبع منه اجزاء متفرقة فى مطابع مختلفة بالهند ولم يتمّ الى الآن طبعه و منها سواطع الالهام لابى الفيض الفيضى من علماء السلطنة الاكبرية لجلال الدين اكبر سلطان الهند فى القرآن التاسع الهجرى و هو فسر القرآن كله بالحروف المهملة و تكلف فى هذه الصنعة حتى أصبح مهملا غير انه يستحق الثناء بهذه المكابدة البالغة و سعة اطلاع اللغة العربية و انجاز هذه الصنعة فى سائر التفسير ، و منها فتح البيان للنواب صديق حسن خان فى عدة مجلدات لخص فيها فتح القدير للشوكانى و غيرها من التفاسير بالعربية و الفارسية ما يشكل استقصائها ـ ثم اول من ترجم كتاب الله الكريم بالفارسية فى الهند[1]

(١) و ترجم قبله الشيخ حسين الكاشفى فى ضمن تفسيره بالفارسية و قبل الكاشفى ترجمة بالفارسيه منسوبة الى الشيخ سعدى الشيرازى رحمه الله ١٢ منه .

و سنّ للامة الحاضرة سنة مسلوكة فى العالم هو الحجة العارف المحقق الشاه ولى الله الدهلوى المتوفى سنه ١١٧٦ ﻫ صاحب حجة الله البالغة و البدور البازغة و الخير الكثير و التفهيمات الآلهية و ازالة الخفاء عن خلافة الخلفاء و المسوى و المصفى شرحى الموطأ و غيرها من اسفار جليلة ، و ابدع فى الترجمة و راعى فيها دقائق و اسرار لطيفة لا يكاد يفهمها كل احد ما لم يكن لهذه الحلبة مجلياً و كتب عليه فوائد لطيفة مختصرة و جرّدها عن الاسرائيليات سماها فتح الرحمن و كأنه وضع بذلك أساساً للتوحيد للامة المسلمة و رحمه الله تعالى فانه قد اغنانا عن الخوض فى بحث عدم جواز الترجمة باللغة غير العربية كما دار البحث اليوم فى علماء مصر و ظاهر انا لا ندعى للقرآن فصاحته المعجزة لنظمه او معناه عليحدة حتى يتوهم انحطاط ترجمته عن اعجازه و يقدح ذلك فى فصاحة التنزيل و لا ريب ان فهم معانيه بتحصيل ذرائعه من تحصيل العلوم العربية و ما يناط به امره اولى و اعلى و لكن من لم يتيسرله ذلك فهل الحرمان له عن فهم القرآن المجيد اولى او فهمه بترجمة فى لغته الوطنية اولى و ارجو الثانى اولى بالاعتبار و ان كتاب الله انزل للناس كافة انسهم و جنهم عربهم و عجمهم ثم لا ريب ان اصول الدين التى ارشد اليها القرآن علمها فرض على كل مكلف و تعلم العلوم العربية ليس بتلك المثابة فلو يدار امر فهم القرآن على تلك العلوم و من القرآن ما هو فرض علمه لكانت هذه العلوم فريضة على المكلف فان ما كان مقدمة لامر واجب فهو واجب كما تقرر فى موضعه سلمنا ان الترجمة ليست بعزيمة و لكن الاستمساك بالرخصة فى موضع يخاف هذا

الامر رأساً من العزائم ثم ان الله تعالى لم يكلف كل أحد بمعرفة اعجازه و براعة اطنابه و ايجازه كيف و هذا وراء قدرة كل احد فرجل تيسر له ذلك و آخر يحرم منه و لا ريب ان القرآن بلاغ للناس و هدى للعالمين فان ترجم بلغات العالم و نشرت فيهم لتمت على العالمين حجة ربهم و قد قال تعالى ﴿ و لقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ و اى تيسر اذا لم يكن ترجمته جائزة باللغات العجمية و من خصائص القرآن انه كل يستفيد منه العالم بعلمه و العامى بفهمه اذا اطلع على معناه و عرضه ، فليذكر وليعتبر ـ و اما التفاسير فلا يكاد يقوم بأعبائها الا افذاذ و افراد من العلماء الاعلام فضلا عن الاميين و العوام و بالجملة علماء الهند مجمعون على جواز تراجم القرآن فى هذا العصر و علماء مصر و مشيخة الازهر افردوا هذه المسئلة بالتأليفات و لم ينفصم فيهم الى الآن أمرها و ليس هذا موضع إنهاء البيان و الله الموفق ـ ثم الشيخ العارف الشاه عبد القادر نجل الشاه ولى الله الدهلوى رحمه الله المتوفى سنه ١٢٣٠ ﻫ تلا تلو والده فترجم القرآن الكريم باللغة الاردوية الهندوستانية فأبدع فى الترجمة و أجادو عليها مدار الامة الهندية اليوم فى الترجمة و فهم كتاب الله العزيز و بلغ فى تنقيحها و تهذيبها و اجادتها و براعة اسلوبها و دقة مغزها و معناها منزلة شاسعة حتى اصبحت كالسهل الممتنع و زاد نفعها بتحرير فوائد شريفة ما كشفت الاستار عن خرائد اغراض كتاب الله الحكيم و عسى ان لا يوجد لبعضها نظير فى هذه المادة الوافرة من كتب التفاسير فما ظنك بكلها و اما الترجمة فكادت ان تكون معجزة باعتبار بعض خصائصها لو كان يمكن ان يكون كلام البشر

معجزاً غير ان الله تحدى بنظم كتابه الذكر الحكيم خاصة فهذه مزية لا تجارى و لا تبارى ـ وكذا ترجم القرآن نجله الاخر الاكبر من اخيه الشاه عبد القادر ، الشاه رفيع الدين الدهلوى المتوفى سنه ١٢٣٣ ﻫ ترجمة اردوية راعى فيها الترجمة اللغوية بترتيب كلمات القرآن و هى انفع للعوام من ترجمة الشاه عبد القادر رحمه الله ـ و املى نجله الاكبر البحر الزاخر الرحلة الحجة العارف الشاه عبد العزيز الدهلوى المتوفى سنه ١٢٣٩ ﻫ على بعض اصحابه تفسيراً للقرآن العظيم من الجزئين الأخيرين و الجزء الاول و الثانى الى قوله تعالى ﴿ و ان تصوموا خيراً لكم ﴾ و سماه الفتح العزيز و أتى فيه بعلوم سامية و فوائد غريزة عالية ما يقضى العجب عن تبحره الجامع و استحضاره المحير و حافظته الزاخرة و احكام صنعته و رصانة تعبيره فانه أملاه عن ظهر قلبه من غير مراجعة كتاب و لا تسويد فى البين سبحان الله يعطى من يشاء ما يشاء و كان يقول شيخنا امام العصر رحمه الله ياليت لو كمل هذا التفسير على هذا النمط البديع لقضى عنا حق تفسير القرآن العظيم حسب المقدور البشرى ثم بعد ذلك بنحو تسعين سنة او مائة سنة ترجم القرآن العالم المتقن الثبت المتبحر مولانا الشاه اشرف على التهانوى الديوبندى طالت حياته من تلامذة القطب العارف مولانا المحقق الشيخ محمد يعقوب النانوتوى المتوفى سنه ١٣٠٠ ﻫ صدر الاساتذة بدارالعلوم الديوبندية بعهده و من تلامذة الشيخ المحقق شيخ الهند الديوبندى الذى سلف ذكره رحمه الله و فسر القرآن معها بالاردوية تفسيراً فى مجلدات كثيرة كابد فيه لمطالعة كتب المفسرين و لخص فيها اموراً مفيدة و حل مواضع مشكلة

غامضة بوجه انيق و زاد نفعها بفوائد بالعربية لطلبة العلم و سماه بيان القرآن ثم ترجمه العالم الفاضل الذكى مولانا عاشق الهى الميرٹهى الديوبندى و ضم مع الترجمة فوائد تفسيرية نافعة ثم لما اسر شيخ الهند رحمه الله فى نهضة الحرية الوطنية و منعود الى ذكر شئ من امره أجمالا فيما سيأتى و ذهب به الى جزيرة « مالطه » أفرغ نفسه و استفرغ و سعه فى مطالعة القران المجيد فأحس ضرورة دينية لترجمة القرآن المجيد على اسلوب عصرى بالحوار الرائج بين القوم بالاردوية و تحرير فوائد تفسيرية فشرع الترجمة حتى أستوفاها و أوفاها حقها فى عهد أسارته فى السجن و أناط الأمر على ترجمة الشاه عبد القادر مجلى هذه الحلبة الفسيحة الشاسعة لما كان يعتقد فى ترجمته ان البراعة عليه مما يكاد يستحيل غيرانه لما كان من دقة النظر و لطافة الفكر و شرح الصدور و نور القلب بمكان لا يدرك شأوه فى عصره و لا يشق له غبار فغير بعض تعبيرانه بنفاسته و حسن تصوير مراعياً سائر المزايا التى احتوت عليها تلك الترجمة النفيسة فراعى الفروق فى الترجمة بين الصفة و البدل و عطف البيان و اذا احتمل المقام كلامنها فأيها ألطف و تضمنت هذه الترجمة دقائق و محاسن تأخذ بالقلوب كل مأخذ و كلما يغوص فيها النظر و يغور فيها الفكرة تبدو محاسنها ــه

غرّاء مبسام كأنّ حديثها درٌّ تحدّر نظمُها منثور

وكما قال ابو نواس ــه يزيدك وجهه حسناً اذا ما زدته نظرا

وكما قال قائلهم و حامل لوائهم ــه

و رحنا يكاد الطرف يقصر دونه متى ما ترقى العين فيه تَسَهَّل

ثم شرع عليها فى فوائد تفسيرية فوصل فيها الى تمام سورة النساء و اتى فيها بكل ما يحتاج اليه نظم التنزيل العزيز فى تنقيح مراده و ابداء غرضه بنهج بديع و لفظ نصيع فاطلقَ رحمه الله من السجن و وصل الى الهند و تهاجم عليه المرض و لم يمهله الاجل المحتوم حتى حان القضاء و ضاق الفضاء و وصل الى الرفيق الاعلى سنه ١٣٣٩ ﻫ بعد مائة سنة كاملة من وفاة الشاه عبد العزيز الدهلوى ثم اضاعت يد الطوارق من فوائد سورة آل عمران و مضت برهة عليها و لم يكن عبقريا يفرى فريه فيكمل الفوائد و يتم ما يريده الشيخ رحمه الله حتى بدت هذه السعادة الازلية فى حق من هو من أرشد تلامذته و اخص اصحابه شيخنا محقق العصر الحاضر مولانا الشيخ شبير احمد العثمانى صاحب فتح الملهم طالت حيوته فاكمل فوائد سائر القرآن مراعياً اصول شيخه بكلمات كلها درر و غرر فى نحو ثلث سنين و أتى فيه بما يحتاج اليه اهل العصر من تزئيف اقوال سخيفة مردودة من بعض ملاحدة اهل العصر مثل محمد على القاديانى اللاهورى صاحب بيان القرآن فى الاردوية و الانكليزية و غيره من اهل البدع و الاهواء الذين يبيعون متاع دينهم الغالى بنهضة المغربيين مجاناً ، و قد سلف ذكر هذه الفوائد فتذكره - فهذه هى تراجم اهل الحق تراجم صحيحة نفع الله بها الامة كثيراً و اصبح عليها المدار فى اقطار الهند و سارت بها الركبان فى الامصار فاكثر العلماء و الطلبة الذين يدرسون القرآن و يتدارسونه ينتفعون بها و لا سيما الترجمة الاخيرة مع الفوائد و بعد ذلك و فى اثناء ذلك تتابعت تراجم القرآن و فوائده التفسيرية بعضها صحيحة من اهل الحق

كتقريرات لترجمة القرآن أفادها العالم العامل العارف مولانا الشيخ حسين علي الفنجابي طال بقاءه من تلامذة قطب العصر مولانا المحدث ابو مسعود رشيد احمد الكنكوهي الديوبندي المتوفى سنه ١٣٢٣ هـ و مولانا المحترم مولانا احمد علي اللاهوري و بعضهم خلطوا صالحاً و سيئاً كترجمة دپتي نذير احمد الدهلوي و الميرزا حيرت الدهلوي و منهم من حرف مراد القرآن و مسخ معناه و افرغه في قالب هواه و جعل الهاوية مهواه مثل محمد علي القادياني الذي اشرنا اليه و عمدته في ذلك تفسير السّتار السيد احمد خان الدهلوي بانيء كلية عليكرة بالهند و الطبيب احمد حسن الامروهي المرزائي القادياني و اسم تفسير هذا الامر وهي غاية البيان فيما اتذكر و حشاه بالاباطيل حاول اضلال الناس .

سر سيد احمد خان الدهلوي
بانى الكلية الانكليزية و تفسيره

و لما جرى ذكر تفسير السار سيد احمد خان الدهلوي لكان من المداهنة المذهبية و النفاق الجلي لو لم يكشف عن امر هذا الرجل و تفسيره فانه اصبح زعيما و قدوة لكثير من اهل الاهواء من المتنورين الذين اظلم عليهم سبيل الملة الحنفية البيضاء و هو رجل زنديق ملحد او جاهل ضالّ اراد الوصول الى الحق فأخطأ الطريق السوى و أناط الامر في امور الشريعة و شعائر الدين على عقله السخيف الزائغ فضلّ و اضلّ و كان دأبه ان كل ما يرد من اهل او ربا من الاعتراضات السخيفة على الملة الاسلامية كان

يسلمه و يقبله ثم طفق يتأول القرآن و السنة و أخذ يقرب الاسلام الى الكفر حتى يجعلهما ديناً واحداً و كانه اراد التقرب به الى اهل الكفر الذين كانت بأيديهم الحكومة فى الهند فانكر وجود الملائكة و قال انها القوى الملكية للخير فى فطرة الانسان و جبلته و ليس عالماً مستقلا خارجاً عن وجود الانسان بل هى صفات منضمة اليه و انكر الشياطين و قال هى قوى الشر المودعة فى فطرة الانسان و انكر الحشر و المعاد الجسمانى بل اثبت الروحانى فقط كملاحدة الفلاسفة و انكر السماوات و انكر الارواح و انكر النبوة الشرعية التى هى موهبة الهية ختمت لسيدنا خاتم الانبياء محمد صلى الله عليه و سلم و زعم انها امر يحصل بالكسب و بدّل صفاتها و غير أماراتها و سوى بين النبى و بين كل من قام مصلحاً فى ملة من الملل ايما كان و انكر الخوارق الصادرة من الانبياء بامر الله القدير و قال ان الخوارق غير مقدورة لله تعالى و كانه أبطل التكليف و التشريع و ناوّل فى سائر الضروريات الدينية القطعية و النصوص الصريحة الصحيحة القطعية دلالة و ثبوتاً حتى قال فى خطبة القاها فى بلدة « ميرتهر » ان الاسلام فوض الينا امور الدنيا فنعمل فيها ما نشاء حيث ورد « انتم اعلم بامور دنياكم منى » الحديث ، و اما امر الدين فوسع فيه علينا حيث « ورد من قال لا اله الا الله دخل الجنة و ان زنى و ان سرق » الحديث ، فهذه كانت عنده زبدة الشريعة و خلاصته و صار كالقرامطة الباطنية و الاسماعيلية و المزدكية و الاخشونية و غيرهم من اخوانه الملحدين و الزنادقة المتأولين فى ضروريات الدين وكان هو تلميذهم الروحانى اخذ عنهم ثم زعم كأنه اخترعها و سوّل له الشيطان أمره فتأول نصوص

القرآن و الحديث بتأويلات سخيفة ركيكة تعافها الطبائع السليمة و تمجّها الاسماع الصحيحة لا يتأول بمثلها كلام عاقل فكيف بكلام بليغ و كيف بكلام الله المعجز بلاغة و فصاحة و كيف بكلام من اوتى جوامع الكلم و قد اعمى الله بصيرته فكان لا يعلم هل لتلك التاويلات مساغ فى العربية نعم ارخى عُداء الدين على بصره سدول الجهل البين العوار و من لم يجعل الله نورا فما له من نور و زعم انها خدمة للدين و به يتحد الكفرة و المسلمون فهكذا حرف القرآن و مسخ الدين و شوّه وجه الشريعة المطهرة و الف على هذه الاصول الموضوعة تفسيراً سماه تفسير القران بالاردوية و حق ان يسمى بتحريف القرآن و قد سبق فى التحريف على احبار اليهود بمنزلة شاسعة هم دونه بمراحل غير ان الله و عد حفظ نظمه الجزيل فلم يقدر ان يحرفه و يبدله و الا فلم يكن ان يكفه عنه أمرٌ و لم يكد ان يصدّه عنه شئ فهكذا اباع دينه بنهضة الاوروباوين مجاناً ! بلى اشترى به ما يريده و يهواه و قد فاز فوزاً عظيما فالدولة البريطانوية لقبوه بلقب السار و هم يعطون هذا اللقب كل من قدى لهم دينه و دنياه و اصبحوا لديه احب من نفسه و ولده و الناس اجمعين و هذا الرجل اغراه حبُ الدنيا و اولع بحطامه فزعم ان المسلمين لم يكادوا ان يرقوا الى المدارج الراقية فى الدنيا الا بان يَدَعُوا مآثر دينهم و شعائر ملتهم التى بعدّتهم عن اهل الحكومة الانكليسية و لم تكن عنده شعائر الدين بحيث يغادر بمثلها زهرة الحيوة الدنيا و نعيمها و بهجتها فهكذا ضلّ و اضلّ و زلّ فى امر الآخرة و ذلّ و قد شبت حرب الحرية فى سنه ١٨٥٧ م و سنه ١٢٨٣ ﻫ فى الهند بين امّة الاسلام و امة

و امة الكفر فهذا الرجل ساعد الدولة البرطانوية بكل ما تسنى له و تيسر حتى اشتهرت تلك الحرب بأسم الغدر بمساعى امثال هذا الرجل المشؤم و اسس كلية لتعليم اللغة الانجيلزية و تكميل مقاصده و ترويج متاعه ببلدة عليكره من الهند و دعوه اهل الحكومة الى لندن بأقبال له منهم فسافر و ساح و عُزّز لديهم و لاقى منهم اقبالا عظيما و فاز بأربه العظيم ، ثم لم يقتنع بهذا القدر بل بثّ الحاده فى تفسيره و سائر مؤلفاته و خطبه غير ان الله وعد صيانة الدين الى حين و جرت سنته فى عباده لم يخل زمان من اهل الحق القائمين بأمر الدين و من المثل « لكل فرعون موسى » و لكل خرق راقع اقام لدمغ كفره و ألحاده و تطهير الدين من خبائثه و أنجاسه الفاضل الحبر مولانا ابا محمد عبد الحق الدهلوى مسكناً و الديوبندى تعلما و تلمذاً المعروف « بالحقانى » فأبلغ فى الرد عليه قلما و لساناً و وضع جمر الغضا فى ضلوعه و جوانحه و أباد ما سنح له من بوارحه و سوانحه و هكذا يقيم الله لمكامعة الفئة الضالة رجالا حلب الدهر اشطرهم محنكين مدربين يعرفون دسائسهم و وساوسهم و يحسون رذائلهم و خسائسهم فيميزون من الطيب خبثهم و خبائثهم و بالجملة فصنف هذا الفاضل تفسيراً فى الرد عليه و سماه فتح المنان و قد نفع الله به الامة و له كتاب مبسوط كالمقدمة لتفسيره فى استيصال شأفة الحاده و الرد على اصوله الزائغة و سماه البيان فى علوم القرآن و قد ترجم الى الانكليزية فشرق و غرب فهذه نبذة من شئون ذلك الرجل فأنصف ايها الخبير المنصف و بالله انشدك فان الانصاف خير الاوصاف هل غادر الرجل شيئاً من الدين او حمية الوطن و حرية الملك

لم يبذل جهده فى إبادتها و ياليت لو كان كفره و ألحاده غير متعد و قد حاول هو ان يدين الناس كله بدينه و يؤمنوا بما تفوه به بشدقيه و قد استهزأ فى بعض المواضع من كتبه بحجة الاسلام الغزالى قدس سره فانظر الى اين بلغت سفاهة هذا السفيه الملحد و الى اين بلغ عوائه الانكر و زعم اباطيله و تسويلاته اسرار و دقائق حتى قال فى تفسيره فى حق الصحابة ان رعاة الابل لم يكونوا ان يفهموا هذه الحقائق فلذا لم يصدع بها الشريعة بل مثل لهم تمثيلات تناسب أفهامهم و ياللاسف تفاقم الشرو بلغ السكين العظم و انا اتعجب من المؤرخ الشهير بالهند شبلى النعمانى صاحب كتاب « سيرة النبي » و « الفاروق » و غيرهما انه كيف يعتقد فى ذلك الرجل ما يورث العجب بل أتأسف بذلك ما لا أكاد اطيقه فانه يخاطبه فى مكاتيبه بقوله « سيدى و مولائى » و لما مات ذلك الرجل كتب الى بعض اصدقائه « تزعزعت اركان الملة اعنى انتقل السيد احمد خان بهادر الى جوار رحمة ربه » و ذلك يوم الاحد ٢٧ مارچ و تفرق شملنا انى لا اقدر على ان اشتغل بشئ الا بعد برهة من الزمان و السلام - شبلى نعمانى ٢٩ مارچ سنه ١٨٩٨ ع » (مكاتيب شبلى) فانظر هذا لقطه بالعربيه فلا ادرى و لست اخال ادرى هل هى مداهنة دينية لمصالح مشتركة او ذلك من ائتلاف ارواحهما و اشتراك مقاصدهما فى العلم و الفهم ذلك مبلغهم من العلم و انما ابوح به على اعين الناس اذ ليس من الدين ان يغمض عن كافر كما ليس منه ان يكفر مسلمٌ و الناس فى هذه المسألة على طرفى النقيضين اما جاهل مفرط او مفرّط كما قاله شيخنا امام العصر رحمه الله فى رسالته اكفار الملحدين

بل (١٣)

بل الاغماض عن الكافر اشد ضرراً على الاسلام من اكفار مسلم و ليس هذا موضع بيانه فارجع البصر كرتين الى ذلك المكتوب فاذا كان مثل ذلك الرجل من اركان الملة فما ظنك بالملة و انت ترى انه لم يغادر ركنا من اركان الملة الا و قد زعزعه لو كان يتزعزع بهذه المساعى الخائبة و ياللعجب رجل حرف القرآن و الدين و جعله امراً ذهنيا و ساعد الدولة البرطانوية فى غزر شبكتها فخان الله و رسوله و خان الوطن و خان اخوان الملك و ابناء الوطن فى تائيد سلطة الحكومة الملعونة ثم يكون هو من اركان الملة ، لو كانت الملة هذه فأبرأ الى الله من هذه الملة الزائغة .

ثم الاسف كل الاسف على حال هؤلاء الرجال يشار اليهم بالاصابع و هذه عجرهم و بجرهم و ذاك خبرهم و مخبرهم و هذا المؤرخ الفاضل نفسه قد شحن كتبه و رسائله بامور لا يكاد يقبلها رجل يؤمن بالله و رسوله و ثلج بالايمان قلبه و شرح الله صدره و اتفق هو فى كثير من اصوله مع الرجل المذكور حاله و غاية ما يمكن ان يعتذر من هذا المورخ ان نعدّه من غلاة المعتزلة و الا فالخطب جليل و الرزء فادح و قد بلغ السيل الزبى و تفاقم الفساد و تراكم الشر فى الامة و دبّ فيهم داء المداهنة و سرى فيهم النفاق الامن اتى الله بقلب سليم او عصمه الله رب العلمين ثم اذا كا هذا حال الرجل و شانه فما ظنك باتباعه و ذرياته و الله الموفق و الهادى الى صراط مستقيم ثم العجب من اتباع هذا المؤرخ كيف يرخون السدول على ما خالف فيه صرائح السنة و عقيدة الاسلام الاجماعية نعم ان الارواح جنود مجندة ما أتلف متها تعارف و ما اختلف منها تناكر

ثم لكلهم هفوات فى القرآن و الحديث و التاريخ يليق بها التنبيه غير ان هذا ليس موضع ذكرها ، هدى الله الامة المحمدية كلها للسداد و جنبنا عن الزيغ و الالحاد و يحـذركم الله نفسه و الله رؤف بالعباد توفانا الله على الديانة الاسلامية و الشريعة المحمدية و الله الهادى الى الحق و الى الصراط المستقيم و صلى الله تعالى على خير خلقه سيدنا و مولانا محمد و آله و صحبه اجمعين .

ترجمان القرآن لابى الكلام احمد الدهلوى

الخـير ابقى و ان طال الزمان به و الشرّ اخبث ما اوعيت من زاد

ترجمان القرآن ترجمة بالاردوية للقران و عليها فوائد وجيزة و مبسوطة لابى الكلام احمد الدهلوى لابد ان ابين شان هذا الكتاب و ما فيه من مخالفة السنة و اجماع الامة و انما حَثّنى على هذا كلمة لبعض اهل العصر اشاعها فى جريدة القاهره « الفتح » من العدد ٥٦٢ و قد قيل « يداك اوكتا و فوك نفخ » و اثنى عليه بما لا يليق به و اغمض عما فيه من المثالب و الفوات او لم يدرها و لا يحرى بنا ان نخدع علماء مصر و نغرهم بالثناء الكاذب على رجل من رجال الهند فأن النصح لله و لرسوله اعنى بنا من المديح الكاذب على احد من ابناء الهند و لا يليق بنا ان نشترى سخط الخالق فى رضاء مخلوقه و رضاء الله و رسوله اهمّ و اقدم من رضاء رجل لم يحتفل فى ايّ وادٍ أرداه قلمه و لسانه و قد او مضت الى بعض هفواته فى رسالتى « نفحة العنبر » من قبل طلباً لرضاء الله تعالى و اداءً لحق البلاغ الدينى الى اخوانى طلبة العلم و عوام الامة المسلمة الهندية و اما أدرى ان الناس سيفتحون افواههم

افواههم و محابرهم للازدراء بى و الطعن على و الرّمى بالجمود و العصبية و البلادة بيد ان تلك سنة جارية فى القرون و قال شاعرهم ـــه

أعـــيرتنا البانها و لحومها و ذلك عاريا ابن ريطة ظاهر

و قال آخـــرهم ـــه

و عيرها الواشون انى احبها و تلك شكاة ظاهر عنك عارها

و ما توفيق الا بالله عليه توكلت و اليه انيب ، قال صاحب الكلمة و من التفاسير التى ألفت باللغة الهندوستانية تفسير الامام ابى الكلام الذى لا يضاهيه تفسير فى العالم الاسلامى غير تفسير الامام الحجة المغفور له السيد رشيد رضا ، آه و لا ادرى هل اراد بتلك الجملة ثناء خرج من جذر قلبه ائتلافاً بما قاله ذلك المفسر او داهن لمصالح يقتضيها العصر و ايّاما كانت فلستُ ادين الله بشئ منه فأقول ان ابا الكلام احمد الدهلوى رجل وقاد القريحة واسع الاطلاع صاحب بيان و بنان فى الاردوية و عسى ان يكون فريداً فى بدائع الانشاء و محاسن الخطابة فى الاردوية بعصره بل كاد يكون مخترعاً لبديع اسلوبه ، و حياته قبل عشرين عاماً كان انفع للقوم من حياته الحاضرة و له قدم راسخ فى السعى لأنقاذ الوطن عن مخلب الحكومة الاجنبية و سلطة الدولة البرطانوية و لم يأخذه فيه خوف الحكومة و صولتها و من ثم سكت كثير من علماء الحق فى شانه و حاله و فى قلبى له منزلة من مساعيه الجميلة فى سبيل حرية الوطن و انه استحثّ فى اوائل أمره كثيراً من اولى الهمم المتوانية و ايقظ الرقود فى سبيل جهاد الحرية باجراء جريدتيه « الهـــلال » و « البـــلاغ » و بخطابته الجاذبة للقلوب فى المحافل السياسية ،

بيدانه رجل معجب بنفسه معجب برأيه و فكرته يزدرى بالعلماء بل بأكابر علماء الملة اذا خالفت اقوالهم رأيه و هواه فأصبح بحيث ترى فيه شحّاً مطاعاً و هوىً متبعاً و اعجاباً برأيه و خروجاً عن المسلك القويم و العلم الصحيح كان فى اول أمره رجلا صحيح الاعتقاد فيما نعلم منه و يشهده به آثاره و مقالاته فى جرائده و رسائله الا انه لم يكن مقلداً فى الفروع لاحد من الائمة كأهل الحديث من القاضى الشوكانى و النواب صديق حسن خان و غيرهما غير انه لم يكتف بهذا القدر بل اخذه الموجدة على العلماء الحنفية حتى امام الائمة فقيه الامة ابى حنيفة رحمه الله فى « تذكرته » فكان هذا يسئ الادب مع اكابر الامة و سعى لان يكون اماماً متفقاً على امامته فى الهند و امير المسلمين فى امر دينهم و دنياهم و حاول ان يجعلوه امام الهند و ان يجمعوا على ذلك و لكن كان فى الهند رجال اولو علم صحيح و اصحاب معرفة و تقوى و ديانة حقة وكان هو كما قلتُ فى سعة من امر دينه حبله على غاربه غير مقيّد فى رأيه وكان دون هولاء فى العلم و العمل بمراحل فقام علماء ديوبند و صدعوا بالحق بانه ليس اهلا لذلك فانهم تفرسوا فى امامته من المفاسد التى يشكل ان يغلق بابها فيما بعد فلم يفز بما كان يهواه و يتمناه و بالجملة انه كان على تلك الحالة برهة أعلن انه يؤلف تفسيراً فاستشرفت اليه الاعناق و ارتقبه الناس ترقب الهيمان الى الزلال العذب و النمير البارد حتى يطبع جزء تم ترجمة القرآن و عليها فوائد مختصرة و مطولة و سماها « ترجمان القرآن » و بسط القول فى تفسير سورة الفاتحة فاخذته بأشتياق و طالعت منه تفسير الفاتحة بأسره وعدة مواضع من تفسير آيات مختلفة

متفرقة فانطفأت فى قلبى لوعة الاشتياق بل تأسفت و وددت ان لو لم يطبع لكان احسن و أحسن فانه كان له فى القلب منزلة و رأيت ان الرجل تشعبت به الاهواء فى كل واد و لم ينج من مداحض الاوهام فأحسست ان ذلك الاعجاب بنفسه و برأيه اورده اولا الى انخلاع ربقة التقليد و انتهى به آخرا الى موارد حائدة عن الصراط السوى ــه

و كل يدعى حباً بليلى و ليلى لا تقرلهم بذاكا

شئ من هفواته

فمما حقق ذلك الرجل فى تفسير ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ ان كل دين من الاديان فى العالم سواء كان دين النصرانية او اليهودية او الصابئية لو دان به الرجل فى صورته التى اتى بها شارع ذلك الدين كفى لنجاته يوم القيامة فان اصل هذه الاديان كلها واحد و هو الايمان بالله و العمل الصالح و شارع كل دين اتى بالتوحيد و هدى الى العمل الصالح و انما الشرك و اعمال الشر نشأت فى اتباع المذاهب من تحزبهم و تشيعهم و هو يردد ذلك فى تفسيره و يدندن حوله بعبارات مختلفة و اساليب شتى و هو يقول ان القرآن ينادى بأعلى نداء الى ذلك و بزعم ان ذلك الذى فهمته هو مغزى القرآن و غرضه و يستدل لذلك بقوله تعالى ﴿ ان الذين آمنوا و الذين هادوا و النصارى و الصابئين من آمن بالله و اليوم الآخر و عمل صالحاً فلهم اجرهم عند ربهم و لا خوفٌ عليهم و لا هم يحزنون ﴾ (٢ - ٥٩) و العمل الصالح ليس عنده الاحكام التكليفية و الشرائع و ليس المدار عليها

عنده و يقول ان تلك العبادات و تلك الشرائع ظواهر و رسوم و انها صور و اجساد و ليست هى حقيقة الدين و لا روحه فكل من انكر الشرائع و الاحكام التكليفية اعتقاداً فيكون عنده مسلماً و لابد و قال فى تفسير قوله تعالى ﴿ ان الدين عند الله الاسلام ﴾ و فى قوله تعالى ﴿ و من يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه و هو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ ان الاسلام عبارة عن الواحدة الدينية العامة لا تختص بشرع دون شرع فالملل كلها تدعو الى هذه الواحدة العامة و الصدق الكامل على سواء ، فليس الملة الاسلامية عنده بمجموع الاعتقادات الخاصة و العبادات المخصوصة و هو يقول و ان اختلاف هذه الرسوم و الشرائع و مناهج التحنث و التعبد مما لم يكن عنه محيص فليس مما ينكر او يستحق الملام فاوسعوا له صدوركم الضيقة و ذروا ما اتم عليه من التضييق و التحجر فلو تعبد احد بالشريعة الموسوية و أحلّ حلالها و حرّم حرامها و لم يتمسك بالسريعة المحمدية و لم يحل حلالها و لم يحرم حرامها بعد ان جاء الاسلام و نسخ الشرائع السابقة فذلك الرجل لا محالة مسلم ناج على ما تصدع به اصوله الموضوعة ، و غير ذلك مما موّهه و زخرفه بأساليب انشائه و حبره بتحبيراته و غرّ الناس بخضراء دمنته فهو يقعقع بالشنان و جوفه هواء و يجعجع من غير طحين و كله هباء . و هذا الذى قلته مغزى عباراته الصريحة لا يكاد يتأول فى شق منه الهم الا ان يكون للصرائح تأويلات غير سائغة فانه صرح به كفرق الصديع وضوء النهار و لم يترك لشفرة محزّاً و لا للتأويل مساغا فى البين فهل قصر قلم الرجل عن افصاح مرامه و هو رجل فصيح يقدر على الصدع بغرضه

بغرضه بلفظ ليس فيه عيّ و لا يشوبه نغص التعمية و دنس العجمة فكيف يؤثر تعبيراً لم يرد منه ما يتبادر اليه الذهن و يفتقر الى صرفه عما يسرع اليه فكر الناظر مساقاً و مذاقاً ؟ فهل لك لذلك التأويل سبيل ، يشفى الغليل و يغنى عن القال و القيل ؟ و هو يقول ان الاسلام دعا الناس اهل الاديان كافة الى ان يتمسكوا بعرى اديانهم منقحة منخولة مما خلطوا به من الباطل و اتباع الهوى و لم يعزم عليهم ان يدروا أديانهم و يختاروا ديناً غيرها الى غير ذلك من التلبيسات و التدليسات مما يوقع الناس فى ورطة الهلاك و هوة الردى ــه

الا تسألان المرأ ما ذا يحاول أنحب فيقضى ام ضلال و باطل
و كل امرئ يوماً سيعلم حاله اذا كشفت عند الاله الخصائل

و اهل جريدة « معارف » كتبوا فى الرد عليه مقالة مبسوطة و قابلوا تراجم بعض آياته و ترجمانه بما ترجمه قبل ذلك بعشرين عاماً فى جريدة « الهلال » و اوضحوا بما فيهما من الفرق البين و الاختلاف المبين فلا ادرى كيف يكون هذا التفسير مما لا يضاهيه تفسير فى العالم ، نعم لا يضاهيه و لا يوازيه بل لا يدانيه تفسير فى مثل هذه المخترعات التى ليس عليها سلطان و الهفوات التى لم يقم عليها برهان ، و العجب ان صاحب تلك المقالة فى جريدة الفتح الذى يثنى على تفسيره و يعتقد فيه من المديح الغالى من رفقاء اعضاء جريدة المعارف و هو على بصيرة من مقالة المعارف فكيف قال ما قال و الى الله الاشتكاء فقد بلغ الحزام الطبيين و بلغ السكين العظم لا عاصم اليوم الامن رحم ، ثم ان ما ذكرته هى اصوله التى عليها

أساس تفسيره و اما تحويل كثير من الآيات الى ما يهواه و التاويل فيها بما لا يحبه الله و لا يرضاه و ما لم ينقل ممن انزل عليه القرآن و لا من اصحابه المخاطبين به بل ثبت و صح خلاف ما قاله كثير ليس هذا موضع سرده ولا موضع الرد عليه و انما نقتصر على تفسير بعض الآيات ايقاظاً للغافلين و تحذيراً للمغرورين فقال فى تفسير قوله تعالى ﴿ كونوا قردة خاسئين ﴾ ، كونوا اذلاء مهانين كالقردة منحطين نازلين عن رتبة الانسان فتخرجون من محافل المروءة و الانسانية مدحورين ، اه ـ و قال فى ص ٢٦١ فى تفسير قوله تعالى ﴿ فقال لهم الله موتوا ﴾ اى لكم الموت بجبنكم يعنى يغلبكم العدو و تحرمون من حيوة الفتح و الظفر على العدو ـ ثم احياهم الله اى نشأ فيهم روح العزم و الثبات حتى استعدوا للقتال فرزقوا الفتح و النصر ، اه و هكذا فى قوله تعالى ﴿ او كالذى مرّ على قرية ﴾ الآية حاول الصرف عن الظاهر فلم يقدر الا فى لفظ واحد راجع ص ٢٦٩ من ترجمانه و هكذا فسر قوله تعالى ﴿ فخذ اربعة من الطير ﴾ الآية كما فسره ابو مسلم الاصفهانى المعتزلى كما حكاه الامام الرازى فى تفسيره و اشار ابو الكلام فى المنهية على تفسيره الى تزئيف قول جمهور المفسرين راجع ص ٢٧٢ ، ٢٧١ و هكذا حرف معنى قوله تعالى ﴿ و رفعنا فوقكم الطور ﴾ فى ص ٢٠٠ و غيرها من تأويلات الآيات بما لا يتأولها ائمة اهل السنة و جماهير الامة و كل تفسيره مشحون بأمثال هذه التاويلات الركيكة التى لا نفاذ لها و لا مساغ و من دابه الخاص انه لا يلتفت قط فى تفسير الآيات الى الحاديث و الآثار و ينوط الامر على كتب التاريخ من مورّخى

اليونان و الفرنسا و غيرهم و ان كان مدارها على الجزاف و الخرص و لا يلتفت الى الاحاديث و ان كانت فى الباب موجودة و كانت اقوى سنداً من تلك الآثار و الكتبات التاريخية التى ليس عليها دليل و برهان كما قال جل ذكره ﴿ ما لهم بذلك من علم ان هم الا يخرصون ﴾ و من دابه انه اذا اقام راياً فى امر فيزعمه امراً قطعياً بحيث لا يقاومه حديث مرفوع و لا اثر صحيح و لا دراية صحيحة و من دابه انه يغروا الى المفسرين قولا ضعيفاً فى آية و يكون هناك اقوال قوية صحيحة غيره فيرد على القول الضعيف و يتمسك بقول آخر من اقوالهم و يصدع به مستكبراً كانه ابو عذرته و ابن بجدته و ان المفسرين لاخبرة لهم به و ربما يستهزأبهم متمثلا بقول الشاعر

ـــه نزلوا بمكة فى قبائل نوفل و نزلت بالبيداء ابعد منزل

و هكذا دابه فى سائر تفسيره ترجمان القرآن ـــه

و ذى خطل فى القول يحسب انه مصيب فما يلمم به فهو قائله

و قد شاع له مكتوب فى بعض الجرائد الاردوية و صدع فيه بأن الامور التى عليها مدار النجاة لابد ان يصرح بها القرآن كصراحة ﴿ وا قيموا الصلوة ﴾ بل اصرح منها و لابد ان يأمر بان يصدق به فكلما جاء فى القرآن امر فى غير الامور التى عليها مناط النجاة و لم يكن منتظما فى سلك العقائد فلا يلزم المرء قبوله و اعتقاده و قال و من اعتقادى انه لا ينزل المسيح بن مريم (عليه السلام) فقيل له فى ذلك كيف نعتقد ذلك و قد صح فى نزوله احاديث و تواترت فما قولك فيها فأجاب « ذكر نزوله فى سلسلة اشراط الساعة و ليس مما يدخل فى العقيدة اهـ و ياللعجب

أليس التصديق بما جاء به نبينا القرشي محمد صلى الله عليه و سلم من العقيدة فاذا جاء رسولنا صلى الله عليه و سلم بأمر و أخبر بوقوعه و صح الاسناد و اتصل به و تواتر عنه شرقاً و غرباً على ظهر البسيطة فهل نرتقب بعده فى الايمان به و الاذعان له لآمر آخر حتى يا مرنا صريحاً بقوله و آمنوا بنزول ابن مريم على انه لا يكفى هذا عنده فى الحديث بل لابد ان يكون فى القرآن و امنوا بنزول عيسى بن مريم - أفليس يكفى قـــوله صلى الله عليه و سلم « وكيف انتم اذا نزل فيكم ابن مريم » و ايّ صراحة ابين منها و ايّ اخبار اصرح منه و مع هـــذا تواتر معنـاه (ع) فى طلعة الشمس ما يغنيك عن زجل .

و لو كان الامر كما زعم فأين الصلوات الخمس صراحة و اين مقادير الزكوة و اين مسائل كفارة الصيام ثم و ثم الى ما يشكل استقصائه ، أفليس اعتقاد فرضيتها من الامور التى عليها مدار النجاة او ليس يكفر من انكر فرضيتها ، قال شيخنا امام العصر رحمه الله فى رسالته « اكفار الملحدين فى ضروريات الدين » و اذا علمت هذا فنقول الصلوة فريضة و اعتقاد فرضيتها فرض و تحصيل علمها فرض و جحدها كفر وكذا جهلهـا كفر و السواك سنة و اعتقاد سنيته فرض و تحصيل علمـــه سنة و جحودها كفر و جهله حرمان و تركه عتاب او عقاب ، اه -

و انمـا اطنبت و اسهبت فى غير ما كنت احاوله من اول الأمر اعلاناً بما بدا لى من الكدر فى تفسيره و التدليس البين و لم يكن عندى من الدين لو كنت اغمض و اضرب عنه صفحاً فان سموم الالحـاد قـد هبت

فى الهند و عمت ارجائها القاصية و اصبح اليوم مناط فهم القرآن المجيد على امثال هذه التفاسير لتعبيراته الرائقة العصرية فقلما سلم منه احد الا رجل اعطاه الله علماً صحيحاً او تزكى نفسه بانفاس الذين لصحبتهم تأثير عظيم فى اصلاح النفوس فثلج صدره بما جاء به النبى عليه السلام و لم يحكم فيه رأيه الضئيل الواهى و قد شرع احد من علماء الفنجاب من اهل الحديث فى تأليف تفسير فى الرد على ترجمان القرآن و طبع منه جزء لم اوفق بعدُ لمطالعته و اظنّ انه اشبع فى الرد عليه و ياليت لو كان ابو الكلام ذا علم صحيح مولعاً بالدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه و سلم يكاد يعدّ من اعاظم رجال الدورة الحاضرة الذين يتباهى بهم العصر و لكان له فى القلوب مكانة غير ان محبة الدين اعلق بقلب المؤمن من محبة ابى الكلام فلا بدّ ان تصان الشريعة من الوسخ الذى يحط من قدرها عند اولى البصائر النافذة و اصحاب العقول السليمة و فق الله الامة كلها الى الصواب و هدهم الى سوىّ الصراط .

عنايت الله المشرقى و تفسيره « تذكرة »

و من تفاسير اهل الباطل تفسير لعنايت الله المشرقى الامرتسرى سماة « التذكرة » و حال الرجل اشهر من نار على علم و هو على طريقة السيد احمد خان الذى ذكر حاله فى هدم اصول الاسلام و اتفق رأيه مع رايه حذو القذة بالقذة فى اكثر اصوله سواء بسواء و لما الف تذكرته هذه و طبعها

(١) و هو العالم الفاضل ابراهيم السيالكوتى ١٢ منه .

و رأها علماء الحق اكفروه بالاجماع لم يتخلف عنهم احد من اهل الحق و هـذا الملحد زاد نغمة فى الطنبور فقال ان الاسلام و الصراط المستقيم الانتفاع بنعم الله تعالى فى الدنيا فكل من انتفع بها فهو مسلم و من حرم منها فهو كافر و قال فى تفسير اصحاب الجنة و اصحاب النعيم الذين يسمون انفسهم اليهود و النصارى و قال فى تفسير اصحاب النار و اصحاب الجحيم الذين يسمون انفسهم بالمسلمين و استدل بقوله تعالى ﴿ ان الارض يرثها عبادى الصالحون ﴾ ان اهل الحكومة من النصارى هم الصالحون فانهم ورثوا الارض و ولوا حكومتها و هذا الملحد ليس عنده صراط و لاحساب و لا كتاب و ليس عنده نشور و لا جنة و لا نار يستهزأ بالجنة و بحورها و قصورها و المراد عنده بالذين انعم الله عليهم اهل السلطنة و الحكومة و هم المراد عنده فى قوله تعالى ﴿ صراط الذين انعمت عليهم ﴾ و كل قوم ليس لهم حكومة و دولة فهم عنده هم الضالون و هم الذين غضب الله عليهم حتى قال هذا الملحد ان النصارى مع قولهم بالتثليث هم المسلمون و ليس الكفر عنده و الاسلام بالعقيدة و القول بل بالعمل فقط و ليس بناء الاسلام عنده على الدعائم الخمس المذكورة فى قوله عليه السلام بنى الاسلام على خمس بل سوّلت له نفسه و شيطانه فاخترع عشرة امور غيرها و ليس الصلوات و اعمال الدين و شعائر الشرع مما يكون عليه المدار عنده نعم ربما يلبس فى كلماته بذكر الجنة و النار و هو تلبيس و تدليس لم يؤمن بها قلبه حيث يذعن بما يخالفه ، و غير ذلك من الهذيانات الشنيعة و بالجملة وجوه كفر الرجل اكثر من ان تستقصى فى هذا الموضع و أسّس

لجنة بأسم « خاكساران » و دعى الناس الى مساعدتها و الشركة فيها و اسّسها على مكائد خفية ليس هذا موضع بيانها و الله الهادى الى الحق .

استطرادمهم ، الدين و السياسة و علماء ديوبند

لقـــد علم الاقـوام انا بنجوة علت شرفاً من ان تضام و تشتما
لنا هضبة لا يدخل الذل وسطها و يأوى اليها المستجير فيعصما (طرفة)

افضتُ فى شعاب ما كنت عزمت ان اجتابها و لكن للكلام شعاب و شجون و شعاف و غضون و الشئ بالشئ يذكر فذكرت شئيا من مآثر علماء ديوبند ما يتعلق بالقرآن فاستثار ذلك عزيمتى لان اذكر بعض آثارهم غيرما ذكرنا ، فليعلم ان لهم مآثر عالية و آثاراً باقية و باقيات صالحة فى خدمة الحديث النبوى و نشر السنة و ابادة البدع و الرسوم الفاشية فى ارجاء الهند و لهم مزية لا يشاركهم فيها احد من خدمة سائر العلوم الاسلامية و المعارف الدينية فى عهد كان اهل الهند أحوج الى ابقاء هذه الرسوم و خدمة هذه العلوم فى وقت كاد يغيض فيه عيون العلم و يطوى فيه بساط الدين فأصبح علماء ديوبند نجوماً لامعة و بدوراً ساطعة فى سماء الهند الداجنة و اصبحوا عيوناً للدين ثرثارة و لا سيما الشيخين الجليلين الحجة العارف لسان الامة الشيخ محمد قاسم النانوتوى الديوبندى المتوفى سنه ١٢٩٧ هجرى قدس سره و القطب العارف، شيخ السنة مولانا رشيد احمد الكنكوهى الديوبندى المتوفى سنه ١٣٢٣ هجرى قدس سره فكانا فرقدى سماء فى الدياجر المدلهمة و رضيعى لبان و فرسى رهان فى هداية الامة ، لمّ بانفاسهما القدسية

شعث الامة الهندية و راب بجهودهما المثمرة ثاى القوم و للتفصيل موضع غير هذا .

كانت الحكومة البريطانوية تسلطت بالهند و تأصلت و لما عدت عن طورها و طفقت فى الظلم على اهل الهند شبت بين الدولة البرطانوية و اهل الهند حرب الحرية الوطنية فى سنه ١٨٥٧ من الميلادية و سنه ١٢٧٣ من الهجرية و سرت شعلها الى الاقطار و ممن جاهد فى الله حق جهاده و شمّر عن ساعد العزيمة الصادقة عصبة من اكابر ديوبند منهم القطب المهاجر المكى الشيخ امداد الله قدس سره و العارف النانوتوى مولانا الحجة القاسم و شيخ السنة القطب الكنكوهى رحمهم الله تعالى فنبذوا الى اهل الحكومة عهدهم على سواء و استعدوا للجهاد فكانت لهم و قائع مما ان يتباهى به الهند و يكون درة التاج لهام المجاهدين فى انقاذ الملك عن بطش الاعداء وكان للعارف النانوتوى فيها مكانة علياء ـ فكانت الحرب سجالا نال المجاهدون من الحكومة و نالت هى منهم و غدر عصبة من ابناء الوطن فصاعدوا الحكومة فدبوا للمجاهدين بالخزى و مشوا لهم بالضراء و مكروا لاراغة المسلمين و فتلوا فى الغارب و الذروة و من هؤلاء الخائنين و الغادرين مع المسلمين السار احمد خان الدهلوى الذى سبق ذكره بانى الكلية حتى اصبحت الدورة للدولة البرطانوية و قد ميز الله تعالى الخبيث من الطيب و علم المفسد من المصلح وكان امر الله مفعولا ، فاضح الامة الهندية فى أسوء حالة و اردى شأن نعم تدور الدوائر و لات حين مناص و تلك الايام نداولها بين الناس ، فكادت تنقض معالم السنة و شعائر الملة الاسلامية و اصبحت علوم الدين و رسوم

و رسوم الشرع فى وهن و فتور فهجست فى نفوس عصبة من اكابر ديوبند داعية لتاسيس مدرسة عربية بديوبند منهم اديب عصره مولانا ذوالفقار على العثمانى الديوبندى شارح الحماسة و ديوان المتنبى و المعلقات و غيرها من زبر نافعة والد حضرت شيخ الهند رحمه الله السابق ذكره و مولانا التقى النقى الاديب الفاضل مولانا فضل الرحمن العثمانى الديوبندى والد شيخنا محقق العصر صاحب فتح الملهم و الشيخ الحسيب النسيب الشيخ السيد محمد عابد حسين الديوبندى رحمهم الله تعالى ثم فوضوا الامر الى حكيم القوم مجاهد الامة حجة عصره مولانا محمد قاسم النانوتوى فتفرس حقيقة الامر و ما يحتاج اليه الهند و ما سيحتاجون فحاول اقامة المعهد الدينى على اساس رفيع و بنيان شامخ و دعى لوضع لبنة الاساس عارفاً و ليّاً من اولياء الله و عرفائه يدعى بأسم « منّى شاه » جدّ مولانا المحدث السيد اصغر حسين الديوبندى من قِبل امه وكان هو بمكانة عالية من التقوى و الطهارة حتى هذا العارف النانوتوى قال فى ثنائه عليه انه رجل عسى ان لم يخطر بباله خطرة عصيان و انتخب العارف النانوتوى لا دارة نظمه الولى العارف بالله مولانا رفيع الدين رحمه الله و يكفى لمنقبته الباهرة ما تواتر انه كلما يحاول اهل المدرسة توسيع احاطتها فكان يتشرف فى الرؤيا بزيارة سيد المرسلين ختام النبيين محمد الهاشمى صلوات الله عليه و سلامه فينصب له حدوداً و يرسمها له بالعصا فهكذا قام هذا المعهد الدينى المبارك فاستوى على ساق و فاضت بركاته فى الآفاق و يدعى اليوم بدارالعلوم الديوبندية و مركز العلوم الاسلامية و يلقب بأزهر الهند و من الهدايات التى هى اصول

هذا المعهد الاساسية و عهد بها العارف النانوتوى ان لن يقبل اسعاد الحكومة البريطانوية ابداً و لا يلتفت الى مساعدات اهل الثروة و الجدة بل يستعان فى رُقيّها من ضعفاء المسلمين و فقرائهم فاعتصم من بعدهم بارشاداته السامية التى هى جدير بان تكتب فى صفحات تاريخ الهند بماء الذهب و ورق الديباج فهذا المعهد الدينى الميمون يطوى مراحل عمره فى ابهى عروج و ازهى ارتقاء ، مضت عليه سبعون حجة فصاعداً و لم يقبل راتباً من الدولة و قد الحت و احتالت غير مرة لقبول الراتب الغالى الذى يكفى لنظامه فى غنية من الناس بيد ان الله و فق اخلافه الى اليوم ان اغمضوا عنه و اقتنعوا بمساعدة عامة الامة المسلمة و القوم و الحمدلله يخدمونه بنحوستين الف روبيه فى كل عام و من الله الرجاء المحصد ان يقتنعوا على خدمة الامة و اعانة ضعفائهم .

فاما انوار هذه الجامعة التى اضاءت ارجاء الهند القاتمة بل اقطار البلاد النائية من بلاد خراسان و ماوراء النهر و بلاد الافغان و الصين و الجاوه و السماطرة و غيرها من آثارها العظيمة و مساعيها المنجحة و بركاته الباقية فى خدمة العلم و الدين و الذب عن حوزة الحنيفية البيضاء و التفادى بالاموال و النفوس فى سبيل جهاد الحرية و اصلاح شعث القوم و تاليف اسفار و شروح كتب الحديث و طبع الكتب بتصحيح و تحشية و بثّ جواهر العلوم و نفخ روح الحرية فى ابناء القوم و تاسيس المدارس الدينية فى اقطار الملك و غيرها من مآثرها الساطعة فى تاريخ الهند ما لا ينتطح فيه عنزان و لا يستطيع انكارها من له العينان كل ذلك مما لا يستقصى

فى هذه الاوراق اجماله فما ظنك بسرد آثارها الباقية و باقياتها الصالحة تفصيلا ، فهل على بسيط الهند بل ساهر آسيا معهد يباريها او مجلس يجاريها او جميعة تناضلها او ادارة سياسية تساجلها ، فهؤلاء الذين ذكرتهم بدورها و شموسها و اولئك نفوسها و رؤوسها ، و حق لبسيط الهند ان يفتخربها اى افتخار و حق ان تستنير ارجائها القائمة من ذلك الانوار و حُقّ لى ان اتلو قول الله عزوجل تحديثا بنعمته بالعشى و الابكار ﴿ افمن أُسِّسَ بنيانه على تقوى من الله و رضوان خيرٌ ام من اسس بنيانه على شفا جرف هار ﴾ و الحق و الحق يقال انه لم يدب فى هذه القرون الاخيرة على ظهر بسيطة الهند دبيباً و لم يرقل لاحد عليها المهارى ارقالا و لا تقريبا مثل الشيخ الحجة العضب المجرد و المشهور الهند مولانا اسماعيل الشهيد حفيد الحجة الامام الشاه ولى الله الدهلوى و مثل الحجة البالغة و الشمس البازغة الصارم المسلول و السيف المصقول مولانا محمد قاسم النانوتوى مؤسّس نهضة العلم و خدمة الدين فرحمهما الله رحمة واسعة و حق لى ان اتمثل بقول زهير ـــه

لو كان يقعد فوق الشمس من احد قوم لاوّلهم يوماً اذا قعدوا

محسّدون على ما كان من نِعم لا ينزع الله عنهم ما لهم حسدوا

وصل الى الرفيق الاعلى مولانا النانوتوى فخلف من بعده البحر المغدق و الحبر المحقق شيخ العصر استاذ العالم مولانا محمود الحسن الديوبندى المدعو بشيخ الهند فكان خير خلف لسلفه فكان مع عكوفه على درس السنة و تاليف الرسائل كان همّه فى انفاسه و اوقاته استيصال شأفة الدولة البرطانوية

وكان زعيما سياسياً للامة الهندية فى عهده المسلمون و غيرهم فى زعامته السياسية كانوا على سواء فكان قطب رحاهم و محورهم ، دارت عليه رحى القوم ، حتى أسرته الحكومة فلبث فى سجن جزيرة مالطة اربع سنين فصاعداً مع صاحبيه و خادميه و جناحيه فى السجن الشيخ المحدث الجهبذ مولانا الشيخ حسين احمد المهاجر المدنى الديوبندى و المجاهد الباسل و الذكى الفاضل مخدومنا المحترم المطاع مولانا محمد عزير الفشاورى ثم الديوبندى المدعو عزير گل اطال الله حيوتهما ، فلما قضى الشيخ نحبه خلف اصحاباً بحوراً للعلوم زاخرة و نجوماً للدين زاهرة منهم الشيخ المدنى ذلك العالم المجتهد المذكور و هو خلف الشيخ اليوم فى مسند الدرس بدارالعلوم الديوبندية و هو ارشد اصحاب الشيخ رحمه الله فى خدمة القوم و الوطن و ابادة شأفة الدولة الحاضرة و منهم شيخنا امام العصر مولانا الشاه محمد انور رحمه الله قد انار مسند درسه بديوبند بعد عهد اسارته و بعد وفاته نحو عشرين عاماً و هو مع عكوفه على المعارف و العلوم لم يال جهداً فى نشر الدين و خدمة الامة و انتخب رئيساً لمحتفل سنوى لادارة جميعة العلماء الدينية و السياسية فى بشاور سنه ١٣٤٦ هجرى لست و اربعين بعد الالف و ثلثمائة من الهجرة و شاع خطبته التى القاها فى المحتفل و هى مشحونة بحقائق علمية و دقائق سياسية ما اذعن لها علماء السياسة و تعين فى آخر عمره صدراً مختاراً لادارة الجميعة اذا اعلنت للعصيان المدنى و الخلاف القانونى - و منهم شيخنا محقق العصر مولانا شبير احمد العثمانى انقضى عمره فى خدمة العلم و الدين و له الحظ الاوفر فى خدمة الوطن و لا سيما فى مساعدة الحكومة التركية

ببعث الاموال فى الحرب العظيمة التى اضرمت نارها فى دول الدنيا اطال الله بقائه فى عافية و منهم المحقق السياسى و الدينى مولانا الشيخ كفايت الله الدهلوى رئيس جميعة العلماء تمضى انفاس عمره فى خدمة العلم و قيادة الامة و سياسة الوطن و لما انعقد المؤتمر الاسلامى بمكة المكرمة سنه ١٣٤٥ هجرى و ندب اليه رجال كبراء القوم و زعمائهم من سائر الممالك فندب اليه الشيخ المحقق العثمانى و الشيخ الدهلوى فكانا مَندوبين من ادارة جميعة العلماء من جانب علماء الهند و منهم المجاهد المذكور مولانا الشيخ محمد عزير الفاضل طال بقائه كان من رفقاء شيخه فى تكميل عزائمه خدم القوم و الوطن برهة من عمره فى مكابدة و معاناة و الآن تنقضى انفاسه فى خدمة العلم و منهم الذكى الفاضل مولانا الشيخ عبيد الله السندى صاحب الهمة العالية و العزيمة الراسخة خدم القوم و الملة برهة من عمره و الآن يقضى حيوته بمكة زادها الله تكريما و منعه الحكومة الحاضرة من العود الى الهند و منهم العالم الفاضل مولانا المحترم محمد ميان المدعو بمنصور الانصارى سعى برهة من عمره لخدمة الوطن و قاسى فى ذلك شدائد و متاعب قادحة و هو الآن مقيم ببلدة كابل[1] و غير هؤلاء الاماثل و الاكابر من يشكل احصائهم ثم من اصحاب اصحابه من يحسر سنا القلم عن سرد اسماءهم كلهم بذلوا جهودهم و نفوسهم و يبذلون فى اعلاء كلمة الحق علماً و ديناً و سياسة و زعامة كثر الله تعالى امثالهم فقس ايها الناظر بين رجال الدنيا و بين رجال الآخرة باعتبار و استبصار ان فى ذلك لعبرة لاولى الالباب فاعتبروا يا اولى الابصار ـ

١) و معنه الحكومة الحاضرة ايضاً من العود الى الهند ١٢ مصحح .

وكأن زهيراً فى حقهم يردّد صداه اليوم ـــه

اذا فزعوا طاروا الى مستغيثهم طوال الرماح لا ضعاف و لا عزل
بخيل عليها جنة عبقرية جديرون يوماً ان ينالوا فيستعلوا
عليها اسود ضاريات لبوسهم سوابغ بيض لا تخرّقها النبل
هم جدّدوا احكام كل مضلة من العقم لا يلفى لامثالها فصل
بعزمة مامور مطيع و آمر مطاع فلا يلفى لحزمهم مثل
و ما يك من خير أتوه و انما توارث آباء آبائهم قبل
و هل ينبت الخطّىّ الا و شيجه و تغرس الا فى منابتها النخل

و كأن ابن الرومى فيهم انشد ـــه

آراءكم و وجوهكم و سيوفكم فى الحادثات اذا دجون نجوم
فيها معالم للهدى و مصالح يجلوالدُّجى و الاخريات رجوم

فحان لى ان اشهد على رؤس الاشهاد للعالم الاسلامى كافة ان لو يقم عصابة ديوبند فى فيحاء الهند بأعباء هذا الامر « العلم و الدين و السياسه » لم يكن اليوم على سطحها العلم الصحيح و الدين القيم سنة و قرآناً و السياسة المليّة و الحقيقة المنخولة و لقضى عليها بالزوال منذ اواخر القرن الثالث عشر من الهجرة و لكانت ظلمات بعضها فوق بعض اذا اخرج يده لم يكد يراها ـــه

ألاليت شعرى هل يرى الناس ما ارى
من الأمر ؟ او يبدولهم ما بداليا

ثناء اهل مصر على دارالعلوم الديوبندية و رجالها

و لما قدم العلامة السيد رشيد رضا المرحوم الهند و احسّ بركات هذا المركز الاسلامى فى اقطار الهند اثنى عل ذلك المعهد الدينى و علمائه ثناء جميلا فمما قال فى جريدة « المنار » على انى رأيتُ فى مدرسة ديوبند التى تلقب بأزهر الهند نهضة دينية علمية جديدة ارجو ان يكون لها نفع عظيم ، و قال ما قرّت عينى بشئ فى الهند كما قرت برؤية مدرسة ديوبند و لا سرت بشئ هناك كسرورها بما لاح لى من الغيرة و الاخلاص فى علماء هذه المدرسة و يصف رجال الدنيا منهم علمائها بالجمود و التعصب و يظهرون رغبتهم فى اصلاح تعميم نفعها و قد رأيتهم و لله الحمد فوق جميع ما سمعت عنهم من ثناء و انتقاد الى آخر ما قال ـ هذا و صلى الله تعالى على سيدنا و مولانا محمد خاتم النبيين و آله و صحبه و تبعه اجمعين .

البحث عن وجوه اعجازه و ما وقع به التحدى و بيان الاعنى فى ذلك

قد خرجت و بعدت عما كنت بصدده و الآن اعود لما كنت حاولته و العود احمد و موضوعى هذا هو اهم من سائر المواضيع المقدمة بل هو روحها فليعلم انى قد أوضحت فيما سلف ان للقرآن المجيد جهات للتفسير شتى و من الرجال من اخذ منها بسهم و فاز فيها بالقدح المعلى حسب الادوار العصرية و لا ريب ان كتاب الله اكبر معجزة فى العالم

يبقى اعجازه على تطور الاطوار و تكوّر الاكوار، تحدّى به خطباء العصر و مصاقع العرب و دعوا الى مباراته و مجاراته انسهم و جنهم فخرست مقاولهم و ذهبت شقاشقهم و انت تعلم ان العرب كانوا بمكانةٍ من البلاغة بعيدة فلهم القصيد العجيب و الرجز الفاخر و الخطب البليغة المطنبة و الموجزة و الاسجاع الرنّانة و المنظوم المرصع و المنثور الرائق فعجزوا و خابوا و قطعت اطماعهم دون مناضلته و مساجلته فاذعنواله عملا و قولا و اعتقاداً و أصبح عجزهم بحيث لا يرتاب فيه ذو أربة و دربة و هو كما ينادى المصقع على رؤس الاشهاد الى بلاغة نظمه و نسقه و براعة و صفه و رَصفه كذلك ينادى على اعين الناس الحكيم و الفيلسوف الى قوانين النظام و نواميس التهذيب و اسرار الرُقى و روح السياسة و دساتير الادارة و دعوة الخلق بالحكمة و الموعظة الحسنة و يقيم براهين قاطعة فى تضاعيفه و طواياه على ما يستحيله الفيلسوف الحكيم او يستبعده بحيث عسى ان يثلج به صدره و تطمئن به نفسه ان اعطى للعقل حقه من الفكرة الغائرة و استمرى من طبعية من دون زيغ و ألحاد و حسد و عناد، و لا ريب انه كلما ازداد الدنيا ازدهاراً و رُقيّاً فى العلوم و الفنون تزداد بدائع كتاب الله على صفحات العالم سطوعاً و لمعاناً، ذوقاً و وجداناً، برهاناً و ايقاناً، و هكذا لا يزال القرآن معجزاً على تعاقب الاعصار و الادوار، لا يَخلقُ و لا يَبلىٰ و هكذا يبقى الى آخر المدىٰ، و مما قلت فى قصيدة لى فى نعت النبى صلى الله عليه و سلم و مديحه ــه

محمد جاء بالقرآن معجزة دامت لنا روضه مخضرة أُنفا

احكامه الغرّ اضحت للانام[1] هدى آياته انجم تهدى الورى طرفا
الفاظه نسقت دُرّ منضّدة دقت لطائفه لا ترتجى لطفا
كالنجم اذ لمعت والشمس اذ سطعت والعين اذ نبعت والصوب اذ وطفا
فاقت حقائقه راقت دقائقه يهديك نوراً مبينا للقلوب شفا
فاحت حدائقه ساحت عجائبه صوب درور كموج البحر ما نشفا
بحر عظيم اذا ما غصته نظراً يجديك دُرّاً ثميناً غالياً تحفا
فاقت بلاغته اعلى ذرى قلل حار العقول هنا عن كنهها رهفا

هذا غير ان الاقدم ان يعرف الجهة التى يتبين بها اعجازه و قامت حجة بالغة و معجزة ناطقة على اهل القرن الاول اولى ذرابة و سلاقة و فصاحة و طلاقة ، قال الامام القاضى ابو بكر الباقلانى فى اعجاز القرآن ص ١٠ (طبع السلفية) و قد كان يجوز ان يقع ممن عمل الكتب النافعة فى معانى القرآن و تكلم فى فوائده من اهل العربية و غيرهم من اهل صناعة الكلام ان يبسطوا القول فى الابانة عن وجه معجزته و الدلالة على مكانه فهو احقّ بكثير مما صنفوا فيه من القول فى الجزء . . . . . [2] و دقيق الكلام فى الاعراض و كثير من بديع الاعراب و غامض النحو فالحاجة الى هذا امسّ و الاشتغال به اوجب و قد قصر بعضهم فى هذه المسألة حتى ادّى ذلك الى تحول قوم منهم الى مذاهب البراهمة فيها و رأوا ان عجز

(١) و فى نسخة للضلال -
(٢) ههنا فى المطبوع بياض فى النسخة و يحتمل ان يكون اللفظ الساقط الذى لا يتجزأ او الجزء الفرد و يدل عليه اللفظ الذى يليه ١٢ منه -

اصحابهم عن نصرة هذه المعجزة يوجب ان لا يستنصر فيها و لا وجه لها حين رأوهم قد برعوا فى لطيف ما ابدعوا و انتهوا الى الغاية فيما احدثوا و وضعوا ثم رأوا ما صنفوا فى هذا المعنى غير كامل فى بابه و لا مستوفى فى وجهه قد اخلّ بتهذيب طرقه و اهمل ترتيب بيانه ، آه .

و هـــذا موضوع مستقل افراد بالتأليف قديما و حديثاً و اول من صنّف فيما بلغ اليه علمى ابو عثمان الحاجظ المتوفى سنه ٢٥٥ هجرى صاحب كتاب البيان و التبيين و كتاب الحيوان و كتاب النجلاء و غيرها ، الّف فيه كتابه نظم القـــرآن و ابان عن حاله الامام القاضى ابو بكر فى اعجاز القرآن بقوله و قـــد صنف الجاحظ فى نظم القرآن كتاباً لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله و لم يكشف عمّا يلتبس فى اكثر هذا الموضوع ، اه ، و نحن لا نتهم الامام الباقلانى فى ذلك كما غمض من كلامه الفاضل الاديب الرافعى غير انا نعذر الحاجظ فانه اول من صنف فيـــه فله فضيلة التقدم و السبق ، ثم صنف فيه الشيخ ابو عبد الله الواسطى المعتزلى المتوفى سنه ٣٠٦ هجرى و سمّاه اعجاز القرآن فى نظمه و تاليفه ذكره صاحب كشف الظنون و ابن النديم و لم نطلع الى الآن على هذا الكتاب غير ان الشيخ عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنه ٤٧٤ هجرى صاحب اسرار البلاغـــة و دلائل الاعجاز شرحه بشرحين كبير سماه المعتضد و صغير لم ندر اسمه و بهذا يتبين مزيته و كفاه فضلا ـ ثم ابو الحسن على بن عيسى الرّمانى المتوفى سنه ٣٨٢ هجرى صنف فيه رسالة صغيرة تبلغ الى نحو ثلثين صفحة سماها اعجاز القرآن طبعت الآن بالهند فى مكتبة الجامعة الملية بدهلى

و قد طالعته و ليس فيها ما يقدر فى هذا العصر المحتفل بكتب القوم فى علوم البلاغة و قد اخطأ الرافعى فى اسم المصنف حيث ذكر اسمه ابو عيسى الرمانى و ليس هو ابو عيسى بل ابن عيسى كما ذكره ابن النديم و ابن خلكان و غيرهما ثم صنف الشيخ الامام القاضى ابو بكر الباقلانى المتوفى سنه ٤٠٣ هجرى ذلك البحر المتلاطم و المحقق الشهير المتكلم شيخ السنة و لسان الامة كتابه المعروف بأعجاز القرآن و الفاضل الرافعى مع ثنائه عليه و على كتابه و مع انتفاعه عنه غضّ من قدره شئيا ، و انا اقول ان له منّة عظيمة على رقاب الامة بكتابه هذا و لا سيما على الفاضل الرافعى فان الباقلانى هو الذى ابان طرق الحجة و اوضع المحجة للامة و كتابه هذا قد مضى عليه نحوالف سنة من عهد تاليفه و هو على حاله غضّ طرىّ لا يستغنى افاضل هذا العصر الحفيل بالعلوم المدونة و الكتب المؤلفة فما ظنك بالأعصر التى لم تبلغ العلوم المدونة الى هذا الحد و لم يتم تدوين العلوم و لا سيما علوم البلاغة التى كملت قصور حمراء بلاغتها و خضراء فصاحتها بأمام اهل الفن شيخهم عبد القادر الجرجانى مع ان هذا من العلوم التى ما نضجت فكيف احترقت ثم مع ذلك كله جرّ كتابه بعبارة تطرب لها الاحلام و الافهام و ترقص لها الاقدام و الاقلام ـ و ممن صنف فى هذا الموضوع كما حكاه صاحب الاتقان و صاحب كشف الظنون و غيرهما الامام المحدث الشهير احمد بن محمد الخطابى البستى الشافعى المتوفى سنه ٣٨٨ هجرى صاحب معالم السنن ثم ابن سراقه[1]

١) و قد نجس الرافعى حقه بل تجاوز الحد و أسرف حيث قال فى حق كتابه على ان كتابه لو كان مما ينفع الناس لمكث فى الارض ، اه ـ =

المتوفى سنه هجرى و الرويانى و لعله ابو المحاسن الرويانى من اكابر علماء الشوافع صاحب بحر المذاهب و مناصيص الشافعية المتوفى سنه ٥٠٦ هجرى و الامام الرازى المتوفى سنه ٦٠٦ هجرى و ابن ابى الاصبغ المتوفى سنه ٦٥٤ هجرى و شيخ الزملكانى المتوفى سنه ٧٢٧ هجرى و لعل هى كتب بعضها من بعض كما قاله الرافعى و عسى ان يحوى مؤلفاتهم هـذه على تفنن اساليب جميلة و براعة تعبيرات رائقة و ابداء وجوه من الاعجاز مسفرة ذات بهاء و جمال و لكن الاسف ان الامة لم تنتفع الى الآن بكثير من هذه المعادن الثمينة و الكنوز الغالية و لعل الله يحدث بعد ذلك امراً ـ و ابن النديم ذكر فى فهرسته كتابين ما عدا هذه الكتب احدهما كتاب نظم القرآن لابن الاخشيد و الاخر كتاب نظم القرآن لابى على الحسن بن على نصر فهذه بضع عشرة كتاباً فى هذه الموضوع ما وصل اليها علمى و احصائى من كتب القدماء و المتأخرين .

ثم جاء بعد هذه القرون المتطاولة و بعد هؤلاء الائمة نابغة ادباء مصر و غرة كاتبي العصر الاديب الفاضل مصطفى صادق الرافعى المرحوم كان من ادباء القرن الحاضر فالّف كتابه اعجاز القرآن على اسلوب عصرى بارع ففصّل بعض ما اجملوه و صدع بما اشاروا اليه و كشف عن بعض

= اقول و كيف يحط من قدر كتاب فيه ما لفظه اختلف اهل العلم فى وجه اعجاز القرآن فذكروا فى ذلك وجوها كثيرة كلها حكمة و صواب و ما بلغوا فى وجوه اعجازه جزءاً واحداً من عشر معشاره كما حكاه السيوطى فى الاتقان و الرافعى نفسه فى كتابه ١٢ منه .

الارتقاءات العصرية و اعجاز القرآن فيها و انار طرفاً من اطراف ما عسى ان يكون فى كلمات القوم اليه ايماض بيد انه كما قال هو نفسه فى الباقلانى رحمه الله كان واسع الحيلة فى العبارة مبسوط اللسان الى مدىً بعيد يذهب فى ذلك مذهب الجاحظ و مذهب مقلده ابن العميد على بَصَر و تمكن و حسن تصرّف اه ـ رجل جاحظى الاسلوب يتغلغل فى اعماق التعبير و التحبير و يرقص قلمه فى بيداء الانشاء فى هزّة و هباب و كانه يحاول ان يعترف ببلاغته قبل ان يعترف ببلاغة القرآن و يترسّل فى العبارة ما يكاد يختلط فيه الحابل و النابل و قد استفاد كثيراً من ابن الاثير فى المثل السائر و لم يصرح به و مع هذا فلا انكر فضله و ما لكتابه و انشائه منزلة فى القلب عظيمة و لكن اودّ ان لو شمّر احدٌ من ادباء العصر عن ساعد الهمة الى تلخيصه فى نحو ثلثه و الثلث كثير و اذن يحرى به ان يوضع هو فى نصاب علم البلاغة فيجديهم نفعاً ان شاء الله تعالى ـ هذا ـ

و ماعدا هذه المؤلفات المفردة فى هذا الموضوع رصّع احبار الامة المحمدية دُرَراً منثورة و جواهر مبثوثة لو نظمت فى تاليف لكان عقداً غالياً لنحر البلاغة و غرة لجبين كتب الادب و العلم فمنها ما ذكره الشيخ الجرجانى فى غضون كتابيه اسرار البلاغة و دلائل الاعجاز و الامير اليمانى فى اضعاف كتابه الطراز و ما يصدع به الامام الرازى فى كتابه نهاية الايجاز و هو و ان انتقاه من كتابى الشيخ و لكن للتعبير فى الحقيقة مجاز و ما بثّه الحافظ ابن القيم فى كتبه مثل بدائع الفوائد و مدارج السالكين و كتاب الفوائد و غيرها من بدائع انواع اعجاز ، و ما بحث عنه اكثر المتأخرين من المفسرين

كصاحب الكشاف و هو هادية صوارهم و مصباح قمة منارهم و كالامام الرازى و ابن الاثير الاديب الكاتب فى المثل السائر و ابى سعود فى تفسيره ارشاد العقل السليم و صاحب روح المعانى و غيرهم من جهابذة العلم و حذاق الفن .

وجه الاعجاز

ثم ليعلم انهم ذكروا فى وجوه اعجاز القرآن اموراً كثيرة اكثرها صحيحة و ان كان بعضها فوق بعض وا بطل الوجوه عندى ما قاله النظام ان اعجازه بالصرفة يعنى ان الله صرف العرب قدرتهم عن معارضته و سلب عقولهم و ان كان مقدوراً فى نفس الامر بيد انه عاقهم هذا العائق الخارجى و من ثم اصبح معجزاً ـ و بطلانه لا يفتقر الى تنبيه فان مفاسده كثيرة ظاهرة ، ثم ان الامام القاضى عياض المالكى ارجع تلك الوجوه الصحيحة الى اربعة انواع الاول حسن تأليفه و التئام كلماته و فصاحة و وجوه اعجازه و بلاغته الخارقة لعادة العرب الذين هم فرسان الكلام و تلخيصه يرجع الى الفصاحة و البلاغة ، الثانى صورة نظمه العجيب و اسلوبه الغريب المخالف لاساليب كلام العرب ، الثالث الاخبار بالمغيبات و ما لم يكن فوجده كما اخبر ، الرابع الانباء بالقرون السالفة و الامم البائدة و الشرائع الداثرة مع كون من انزل عليه اميّاً لا يقرأ و لا يكتب و هى مما لا يعلم منه القصة الواحدة الا الفذّ من احبار اهل الكتاب الذى قطع عمره فى تعلم ذلك ، انتهى ما قاله ملخصاً ، و قد فصّل كل وجوه من هذه الوجه الاربعة بما فيه للقلوب شفاء و للعيون جلاء وكل ما قاله صحيح بل الامر عندى كما

قال ابن سراقة انهم ما بلغوا الى معشار وجوه الاعجاز و من اعجازه ان لا تنقضى وجوه اعجازه ابداً ، فيبدو منها فى كل قرن ما لم يبد فى القرون الغابرة ـــه

كالبدر من حيث التفت رأيته يهدى الى عينيك نورا ثاقبا
كالشمس فى كبد السماء و ضوئها يغشى البلاد مشارقاً و مغاربا

بيد ان الذى وقع به التحدى لبلغائهم و خطبائهم و مصاقعهم و شعرائهم انما هو نظمه البديع بفصاحته و بلاغته و غريب اسلوبه و براعته فانهم كانوا ارباب هذا الشان و اصحاب البيان يعرفون هذا الامر ذوقا و وجداناً ، معرفة و ايقاناً لم يكن عليهم فيه لبسة و لا يدخل عليهم فيه شبهة و لا يتسرب اليهم وسوسة و اليه جنح الجمهور ، قال ابن عطية الصحيح و الذى عليه الجمهور و الحذاق فى وجه اعجازه انه بنظمه و صحة معانيه و توالى فصاحة الفاظه ، انتهى ملخصاً ، فاذا دار الامر على هذا فالمجال رحب و المساقة شاسعة و الاعنى فى خدمة القرآن المجيد هذه الجهة و احكام هذا العمل إنما يتأتى كما قاله الامام الباقلانى رحمه الله بعدم التقدّم فى امور شريفة المحل عظيمة المقدار دقيقة المسلك لطيفة الماخذ و لهذا اختصّ بمعرفته افذاذ فى الامة بل سار مسير الامثال ما يقال « لم يدر اعجاز القرآن الا الاعرجان » اريد بهما الشيخ عبد القاهر الجرجانى صاحب دلائل الاعجاز و العلامة جار الله محمود الزمخشرى صاحب الكشاف و قرن بهذه المقولة شيخنا امام العصر فقال « احدهما من زمخشر و الآخر من جرجان » و ما هذا الا من خطر هذا الامر و بعده عن الوصول اليه و كيف لا و قد حكى الباقلانى

فى كتابه عن الاصمعى رحمه الله « فرسان الشعراء اقل من فرسان الحرب » و عن ابى عمرو بن العلاء « العلماء بالشعر اعزّ من الكبريت الاحمر » ثم قال الباقلانى اذا كان الكلام المتعارف المتداول بين الناس يشق تمييزه و يصعب نقده و يذهب عن محاسن الكثير و ينظرون الى كثير من قبيحه بعين الحسن و كثير من حسنه بعين القبح ثم يختلفون فى الاحسن منه اختلافاً كثيراً و يتباين آراءهم فى تفضيل ما تفضل منه فكيف لا يتحيرون فيما لا يحيط به علمهم و لا يتأتى فى مقدورهم و لا يمثلى بخواطرهم الى اخر ما قال رحمه الله ، و لما كان شيخنا رحمه الله صاحب مشكلات القرآن نسيج وحده و نظير نفسه فى عصره نظير من نظراء افذاذ القرون السالفة جمع الله له شمل المزايا التى قلّما يجتمع فى احد ، اعرف اعجاز القرآن و ثلج به صدره و ربما كان يقول بعد حكاية المقولة السابقة « لم يدر اعجاز القرآن الا الاعرجان و انا ثالثهما » و كان يقول اعجاز نظم القرآن عندى ابين من طلوع ذكاء عن مشرقها ليس فيه للشبهة مدخل و مساغ و اما الذكاء فربما يشتبه طلوعها و يرى فى الافق قرصها و يكون هو انعكاس قرصها حيث تحقق فى الفلسفة الجديدة انه يترا آىٰ قرص الشمس قبيل شروقها من افقها الحقيقى بعدّة دقائق ثم كان الشيخ رحمه الله يمثل هذا تقريباً للافهام بقدح فيه درهم مثلا و ضعه بعيداً عنك بحيث لا يرى فيه الدرهم ثم اذا ملئ ماء يترا آىٰ لك الدرهم فيه فيمكن ان يقع الريب فى قرس الشمس بيد ان اعجاز نظم التنزيل العزيز يقين لا يقربه شك و ثلج صدر لا يخلطه حيرة و لا وهم اطمئن به القلب و قرت به العين فهو ابين عندى من فلق الصديع

و اوضع

و اوضح من شروق ذكاء، و لا ريب ان تغلغل الشيخ رحمه الله من علوم البلاغة كان بمكانة شاسعة لا يدرك شأوه و لا يشق غباره فكانت البلاغة سيطت بلحمه و دمه و كان يقول رحمه الله قد اودع الله فى قلبى معياراً لمعرفة البلاغة فلستُ فيها لاحد مقلداً و اعطانى بصيرة ادرك بها مراتبها .

و كثيراً ما رأيته رحمه الله ياخذه وجدٌ و نشاطٌ فى تعبير القرآن و يطرو عليه هزة كهزة العصفور حين بلله القطر المطور فكان رحمه الله يلتذّ بحلاوته و عذوبته و يسرى حميّاه فى قلبه و روحه كما يسرى الروح فى البدن و يتحير من بهجته و رونقه و مائه ـ وكان يقول و الأعنى فى تفسير القرآن هو الصدع بغرضه بما يقتضيه جزالة شانه الجليل و يبقى نظمه المعجز على سذاجة فطرية و يستغنى عن تكلفات و تقديرات تنا فى بليغ نظمه المعجز البارع فان التكلفات و التقدير فى العبارات تحطه عن درجته القاصية التى ليست ورائها غاية و لا يتوخى بعدها نهاية ــه

رتب تقصر الامانى حسرى دونها ما ورائهن وراء

و يؤيّد كلام الشيخ رحمه الله ما قاله الزمخشرى رحمه الله من حق مفسر كتاب الله الباهر و كلامه المعجز ان يتعاهد بقاء النظم على حسنه و البلاغة على كمالها و ما وقع به التحدّى سليما من القادح و قال غيره معرفة هذه الصناعة بأوضاعها هى عمدة المفسر المطلع على عجائب كلام الله و هى قاعدة الفصاحة و واسطة عقد البلاغة ـ و كان رحمه الله يثنى كثيراً على « نظم الدرر فى تناسب الآى و السور » للشيخ ابراهيم بن عمر البقاعى المتوفى سنه ٨٨٥ هجرى من ارشد اصحاب شيخ الاسلام الحافظ ابن حجر

العسقلانى رحمه الله وكان يفضله على سائر التفاسير المتداولة بين الامة من هذه الجهة السامية وكان يقول هو قد وفّى حقه بما امكن لمجهود البشر وكان يتمنى طبعه فى حيوته و عزم على اخذ عكسه من مكتبة خديو مصر و لكن حال الاجل دون الامل فتوفى رحمه الله و فى قلبه حسرة و كان كما قيل ـــه

و لم يتفق حتى مضى لسبيله و كم حسرات فى بطون المقابر

وكما قال ذو القروح الملك الضليل ـــه

و ما المرأ ما دامت حشاشة نفسه بمدرك اطراف الخطوب و لا آل

و قال ربنا عزوجلّ ﴿ ام للانسان ما تمنى فللّه الآخرة و الاولى ﴾

و قد حان لى ان اذكر كل ما كان الشيخ رحمه الله يذكره مما سمعته او وصل اليه علمى عنه ما يتعلق باعجاز القرآن و مزايا نظمه و ما يلوح الى خصائصه و آدابه فى سرد القصص و الوقائع و ما كان يؤمى الى لطائفه و اسراره حتى يتبين لك صدق ما قلتُه و لتقدر منزلة الشيخ رحمه الله من الخوض فى علومه و معارفه و لتعرف مزية الكتاب الذى حاولت تأليف مقدمة ثم لتقابله بما يديك من اقوال علماء الامة فى الاعجاز و غير ذلك مما يتعلق بالقرآن لتكون على جليـــة من الامر و بصيرة تدرك بها الحكم الصحيح و الحق الصريح ـ و موضوعى هذا اهمّ مما اسلفته من هذه الجهة فانه دقيق المسلك لطيف المغزى غامض الكنه يحتاج الى ذوق فى النفس و دراية مع التضلع من علوم البلاغة بأمعان نظر و فراغة قلب و تلطيف للفكرة و لكن كان الشيخ رحمه الله بليغاً مولعاً بالايجاز حتى يزعم كلامه من لم يستأنس بتعبيراته

قريباً من الالغاز و قد قال على رضى الله عنه ما رأيتُ بليغاً قطّ الا وله فى القول ايجاز و فى المعانى اطالة ، اه حكاه ابن الاثير ـ و بلغنى عن الفقيه المحدث الشيخ محمد اشرفعلى التهانوى اطال الله بقاءه فى عافية انه كان يقول ربّ جملة واحدة من كلام الشيخ رحمه الله يحتاج فى شرحها الى تاليف رسالة ، آه ـ و الشيخ رحمه الله صنيعه فى ذلك كما قال ابن النديم فى صدر كتاب الفهرست النفوس تَشرَئِبُّ الى النتائج دون المقدمات و ترتاح الى الغرض المقصود دون الطتويل فى العبارات ، اه ـ او كما قال الخليل ابن احمد رحمه الله من الابواب ما لوشئنا ان نشرحه حتى يستوى فيه القوى و الضعيف لفعلنا و لكن يجب ان يكون للعالم مزية بعدنا حكاه ابن يعيش فى شرح المفصل و قال ابن يعيش اذ من المعلوم ان من كان قادراً على بلاغة الايجاز كان قادراً على بلاغة الاطناب اه ـ

و بالجملة لما كان دأب الشيخ ايجاز العبارة دون تمهيد المقدمات و ايضاح القول فى بسط احاول ان اسرد اقواله مع شرح ما يفتقر بعضها الى ايضاح للغرض و بسط فى الكلام فى استبصار مما ذكره فى بعض رسائله او فهمت كلامه بتوفيق الله و عونه .

قوله فى وجوه اعجاز التنزيل العزيز

قال رحمه الله القرآن الكريم كله معجز و اعجازه عندى سار فى مفرداته و مركباته و فى ترتيب كلماته و فى مقاصده و حقائقه فهو معجز لفظاً و تركيباً و ترتيباً و اغراضاً و مقاصد و علوماً و حقائق .

اعجازه بالمفردات قال و اما الاعجاز باعتبار مفرداته فأريد به انه اذا كان فى الصدع بحقيقة امر نزاع بين العقلاء وكانت الاطراف متجاذبة و اصبحت العقول حائرة لا تدرك الحقيقة و دار الامر بين هذا و ذاك لا ينفصل فيه الاختلاف و لا يهتدى الى سبيل فالقرآن المجيد يؤثر فى امثال هذه المواضع المتلاطمة تعبيراً بكلمة مفردة لا يمكن أوفى منه بالحقيقة و أوفى بالمقام و اوفق بالغرض بحيث لو تظاهر الثقلان على ان يوردوا موضعه لفظاً غيره أقرب الى الحقيقة و أنطق بالغرض لخابو او ندموا و ما رأوا الا عجزاً و قصوراً فيستحيل ان يوفى الغرض المسوق له بلفظ آخر غيره فهكذا القرآن يكشف بكلمة حقيقة غامضة لاتصل اليها افكارهم و لا تكاد تفصح عنها بكلمات فكيف بكلمة و لنمثله لك بمثال بتوطئة للغرض قبله .

كانت العرب عامتهم ينكرون البعث بعد الموت و يزعمون ان الانسان اذا مات تفرقت اوصاله و فنيت اجزاء بدنه و لم يبق منه شئ و قد افصح التنزيل عن زعمهم هذا فى غير موضع و منه قوله تعالى ﴿ و قالوا ان هى الا حيوتنا الدنيا نموت و نحيى و ما نحن بمبعوثين ﴾ و غيرها من الآيات و فى صحيح البخارى من قول بعضهم ـــه

يخبرنا الرسول بأن سنحيى وكيف حيوة اصداء و هام

و الصدى عندهم ما كان يزعمون انه اذا قتل رجل يخرج من راسه طائر و يصيح اسقونى اسقونى حتى يؤخذ بثأره كما فى شروح الصحيح و مثله فى دائرة المعارف لفريد و جدى من الصدى فلم يكن عندهم حساب و لا كتاب و لا معاد و لا نشور و زعموا ان العالم هكذا يبقى لا يخرب و لا يبيد

كما

كما حكاه الصاعد الاندلسى فى طبقات الامم الصفحة ٢٨ و الشهرستانى فى الملل و النحل و غيرهما و عصبة منهم قالوا بالمعاد كما يكشف عنه بعض اشعار شعراء الجاهلية ثم القائلون بالبعث ايضاً كانوا مختلفين لم يتبين عندهم امر تطمئن اليه نفوسهم كما قال عزوجلّ ﴿ فهم فى امر مريج ﴾ (ق) و قال ابو طالب ـــه

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم الاعلى شجب و الخلف فى الشجب
فقيل تخلص نفس المرأ سالمـــة و قيل تشرك جسم المرأ فى العطب
و من تفكر فى الدنيا و مهجتـــه اقامـــه الفكر بين العجز و التعب

وكانت لهم للموت فى الجاهلية اسماء حسب مداركهم و مشاعرهم كما سردها ابن سيّدة الاندلسى فى الجزء السادس من المخصص الصفحة ١١٥/٦ وهى الهميغ (بالمعجمة و قيل بالمهملة) و النيـــط و الرهـر و المنون و الشعوب و الفود و الحمام و السام و المقدار و قيتم و جباز و حلاق و القاضية و الطلاطل و الطلاطلة و العول و الذام و الكفت و الجـداع و الحزره (بتقـديم المعجمة) و الحتف و الخالج ، و استشهد لاكثرها باشعارهم و ذكر التوفى فى اسماء الموت و استشهد بالتنزيل العزيز فعـلم انه لم يكن عندهم هذا قبل نزول القرآن فجاء الاسلام و نزل القرآن و افصح بالمعاد و بالبعث و النشور و الحساب و الكتاب و ردّ عقيدتهم الزائغة من الفناء المحض و عدم بقاء الروح و استبعادهم النشأة الثانية و تعجبهم من اجتماع الاجزاء البائدة عندهم بعد كونها رفاتاً رميما و نطق بالبقاء بعد ما كان فى الظاهر عديماً و مثل لهم تمثيلات تقرب الى الاذهان حقيقة البعث و يكشف

ما فيه من الخفاء و البعد بحيث تطمئن بها قلوبهم و تشفى بها نفوسهم فاستعمل لهذه الحقيقة لفظ التوفى بمعنى استيفاء الشئ كاملاً و تحصيله سالماً من غير ان ينقص منه شئ فللارواح عنده مقرّها و لاجزاء الجسد لديه مستقرها فيجمعها اذا شاءها العليم الخبير ﴿ و هو على جمعهم اذا يشآء قديرٌ ﴾ فكل ذرة من ذرّاتها لا يعزب عن علمه و لا يشتبه عليه منها شئ فقال عزّ من قال ﴿ و عندنا كتٰبٌ حفيظٌ ﴾ ، قال الشيخ رحمه الله و ما للاغمار و لمثل الفاظ القرآن حقيقة و معرفة و حلاوة و وقاراً و فخامة و جزالة و متانة و اين انت من لفظ الشهادة للقتل و من التعبير للموت بقوله ﴿ فمنهم من قضى نحبه ﴾ ، قال الشيخ فى تحية الاسلام و الذى يرى ان استعمال التوفى بمعنى الموت ايضاً شاع فى الدورة الاسلامية تبعاً للقرآن و لعله لهذا لم يذكر الازهرى فى تهذيب الالفاظ و الثعالبى فى فقه اللغة التوفى فى اسماء الموت ، اهـ ـ قال الراقم و يؤيد هذا ان صاحب المخصص ذكر من اسمائه التوفى و لم يستشهد له الا بالقرآن كما قلته آنفاً فلم يكن عندهم حقيقة الموت كما عند الاسلام فكيف يعبرون عنها بالتوفى فما كانوا يعرفونها بهذا المعنى و لا بهذا اللفظ بل كانوا يعرفون التوفى بأخذ الشئ وافياً اى استيفائه و استكماله كما قالت أُخت طرفة فى رثاءه

عددنا له ستّاً و عشرين حجة فلما توفاها استوى سيدا ضخما

فجعنا به لما رجونا ايا به على خير حال لا وليداً و لا قحما

قال الشيخ و اشار بلفظ التوفى الى لطيفة أُخرى بان المتوفىٰ يكون حق المتوفِ فلا يقال مثلا لاخذ الفرس من الصحراء توفيت الفرس و انما يقال

يقال توفيت حقي اى حصلته و يقال فى معناه بالفارسية ، وصول كردم حق خويش را ، و إذا كان لتحصيل حقه و الحق لا يكون عند الغير الا عارية لمدة مضروبة تضمّن اتمام المدة من هذا الوجه ايضاً من حيث استبداده بقبضه متى شاء كما قال و نعم ما قال ـــه

و تراكضوا خيل الشباب و حاذروا من ان ترد فانهن عوارى

و صاحب الحق ياخذ متى شاء فهذا ايضاً معتبر فيه و كما قال ـــه

و ما الروح و الجثمان الا وديعة و لابد يوماً ان تردّ الودائع

قال الشيخ و فى لفظ التوفى اذا كان مسنداً الى الله تعالى لطيفة أُخرى و هى انه اشار به إلى أن المتوفى اصبح ملكاً للباقى فلا يبيد و لا يفنى و لفظ الشيخ فى تحيّة الاسلام ص ٣٣ و اعلم ان لفظ التوفى هو قبض الحق إذا كان مسنداً الى الله تعالى فى مقام اختصاص دل على ان الشئ المتوفى لا يفنى بعده لصيرورته ملكاً للباقى و هو المراد بقوله تعالى ﴿ وكنتم امواتاً فاحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون ﴾ اى الاماتة و الاحياء مرة ثانية لا يدوم هكذا بل ينتهى ، على قوله ﴿ ثم اليه ترجعون ﴾ و على قوله ﴿ و ما عندكم ينفدُ و ما عند الله باق ﴾ فاذا كان المتوفى هو الروح كان باقياً بعده فدّل هذا اللفظ على بقاء ما توفى و لما كان البدن فى سائر الناس غير متوفى لحضرته تعالى وكان سيدنا عيسى عليه السلام مما توفى الله بدنه مع روحه زاد فى آل عمران بعده ﴿ و رافعك الى ﴾ و خصه به عليه السلام و لعل اسناد التوفى اليه تعالى اما ان يكون فى مقام الاختصاص او فى مقام الارسال كآية الزمر بخلاف غيرهما فيسند الى الملائكة اذن

و لعل هذا اراده الراغب رحمه الله فى مفرداته حيث قال توفى اختصاص و شرف لا توفى موت انتهى بتصرف و تلخيص ثم انه لما كان فى النوم ايضاً نوع توفى استعمل له القرآن ايضاً التوفى فى قوله ﴿ الله يتوفى الانفس حين موتها ﴾ الآية و فى قوله ﴿ و هو الذى يتوفاكم بالليل ﴾ الآية قال الشيخ و إنما صرّح بالانفس فى قوله تعالى ﴿ الله يتوفى الانفس - الخ ﴾ لان توفى الموت تعلم الناس حقيقة من القرآن بخلاف توفى المنام فإنه بديع عندهم فأعلمهم ان فيه توفّياً للنفس فلم يكن بدّ من التصريح بها ثم لما اعلم به مرة ارسل بعدها فى قوله تعالى ﴿ و هو الذى يتوفاكم بالليل ﴾ قال الراقم يريد الشيخ رحمه الله انه لما علمهم بان فى المنام ايضاً توفياً و اورد لفظ الانفس اعلاماً لهم و تعليما فعلموا الحقيقة فتعارف التوفى فيهم بمعنى المنام ايضاً فاستغنى بعده عن ذكر الانفس فى قوله تعالى ﴿ و هو الذى يتوفاكم بالليل ﴾ فالشيخ رحمه الله ازاح ما كان يختلج فى الصدر فيما ذكره اولا من نكتة ذكر الانفس فى الآية السابقة و تركها فى الآية الاخرى فلله درّه ما ابهى دره) ثم قال اعنى انه صرّح بها لاظهار حقيقة هى ان فى المنام و الموت توفّياً و تحصيلا ، و ان له تعالى فيه ذلك الفعل و قد يجئ القرآن لاظهار هذه الحقائق مما لا يعلمه اهل العرف و لعل العرب لا يعلمون انّ فى الموت توفّيا بمعنى التحصيل الى آخر ما قاله رحمه الله .

و قال الشيخ رحمه الله فى مواضع من التحية ما ملخّصُه و اعلم ان اهل الجاهلية لما كانوا يعلمون للموت انه فناء محض و انعدام محض

و هداهم

و هداهم القرآن ان الامر ليس كذلك و ان فى الموت توفياً و ان لم يكن التوفى هو الموت بعينه فاطلاق التوفى فى محل الموت و لا اقول على الموت انما تعلمه العرب عن القرآن و هو الذى هداهم إلى هذه الحقيقة و علمها لحقيقة الامر ان التوفى فى كل مقام هو الأخذ و يصدق فى الموت و النوم و الرفع ان فيها توفياً فهذه حقيقة الامر و فقه اللغة و منصب القرآن بيان الحقائق و من رزقه الله تعالى ذوقاً فى القرآن و حظاً فى العربية يعلم انه ليس يجرى على الحوار العامى بل له طريقة متميزة فى انتقاء الالفاظ و اللحظ فيها إلى اصل و صغها و رعاية حقائق ما وضع لها و من اجل ذلك يتعذر بل يستحيل وضع لفظ فيه بدل لفظ و ذلك للجهل بحقائق الاشياء و بالذى يفى بحقّ المقام فهكذا يعين القرآن محطّ الفائدة بتعبير مفرد تتقاصر عنه الافهام و تعجز عنه مدارك الاعلام .

ثم ان الشيخ رحمه الله اتى ببدائع و غرائب من اسرار البلاغة و لطائف نظم التنزيل فى آية التوفى اعنى قوله تعالى ﴿ يا عيسى انى متوفيك و رافعك الىّ ﴾ الآية فى كتابه عقيدة الاسلام فى حيوة عيسى عليه السلام و تعليقاته تحية الاسلام ما يدهش الفحول و يحير العقول و تلاطم بحره الموّاج فقذف بدُرر غالية القدر ثمينة الذخر ما حرىٰ بها ان تكون واسطة عقد الفصاحة و قاعدة البلاغة و البراعة و بسط فيها الكلام و احاط بسائر ما يتعلق بالمقام ما يتبين به ما للشيخ رحمه الله منزلة قاصية فى علوم البلاغة تتقاصر عنه الخطىٰ و تحار فيها القطا و لو جمع جميع ما بثّه فى كتابيه و جميع ما احال عليه بالمراجعة الى الكتب فى هذه الآية خاصةً و يلتقط

تلك الدرر المبثوثة فيها ثم يرتب ترتيباً انيقاً على اسلوب عصرّى لصار سفراً كبيراً و لا ريب و لكان اعلى ذخيرة و اعلها فى كتب التفاسير و كتب البلاغة و البيان و حقق هنا الشيخ هل هذا التوفى بمعنى الموت كناية بيانية او أُصولية و هل الكناية حقيقة لغوية او مجاز لغوى و ما ذا اقوال أئمة البلاغة فى ذلك و ما أُلحق فيها و غير ذلك من لطائف البلاغة ما يقدر قدرها البليغ المعانى ذو الذوق العظيم فى المعانى و صاحب الحظ من فصاحة المبانى و عقد فصلا مستقلا فى ذلك كتابه عقيدة الاسلام و لفظه فصل فى تفسير لفظ التوفى و شرحه لغة و عُرفا و بيانه حقيقة و كناية و توفية حقه و استيفاء مستحقّه اه ـ و الذى دعا الشيخ الى كشف هذه اللفظة اوّلا هو الرد على اللعين القادياني المتنبى الكاذب و على اتباعه الملاحدة الذين قالوا بانّ عيسى عليه السلام قد صلب و مات و استدلوا على ذلك بالقرآن فحرّفوا القرآن و مسخوا و صحّفوا غرضه و نسخوا كما قال الشيخ رحمه الله و هذا اللفظ هو الذى شغب به ذلك الجاهل الشقى و اتباعه و لهم فيه جعجعة و لا طحين و سودوا به الاوراق و اصرّوا و كرّروا فلا نرى كتابة لذلك الجاهل الا وله جرة بحيث يسأم الناظر فيها و يامن قلبه ساطرها و هذه هى بضاعته المزجاة و قد ردت عليه نخسئ و لم يعد قدره و كان كما قيل ـه

ما زال سر الكفر بين ضلوعه حتى اصطلى سر الزناد الوارى، اه ـ

فباراه الشيخ رحمه الله وكافحه و ردّ عليه ابلغ ردّ و صدع بالحق بحيث لم يبق مجالا و تركه على مشفر الاسد و أثبت كان القرآن نزل لردّه و لوضع جمر الغضا فى جوانحه و سد عليه الابواب من كل جانب ،

 فاصبح

فاصبح مدحوراً و له عذاب واصب ـ و ليس هذا موضع ايفاء القول و إنها البيان فيه فلنتقصر على هذا القدر النزر و ربما يخطر بالبال ان لو و فقنى الله لذلك لقمتُ بأعبائه و بأخراج هذه النفائس الكامنة من معادنها الثمينة انفاقاً على طلبة علوم البلاغة و البيان من مأدبته الحفلى و مائدته التى هى اعلىٰ و احلىٰ و الله ولى التوفيق و الاعانة و هو حسبى و نعم الوكيل .

ثم يقول الراقم و هذه الجهة اعنى اعجاز القرآن بمفرداته من هذه الجهة الغامضة التى قرّرها الشيخ لم يتنبه له احد مثله و لم يكشف عنها بتلك المثابة و إن كانوا تنبهوا له من جهات أُخرى من جهة التركيب و الترتيب و مع هذا لم يجعلوها مناطاً للاعجاز و محطاً للتحدّى و المباراة و كان التنبيه عليه من الاعنى فى باب الاعجاز و الاهمّ فى باب المجاراة و احاول ان التقط من كلمات بعض الاعلام ما يوضح ذلك و الشيخ رحمه الله لم يتوجه اليها لانها مما كان تدرك ببادى الفكرة للبلغاء المصاقع او لان القوم تنبهُوا عليها و إنما همّ الشيخ رحمه الله كان ابداء الغوامض و كشف مالم يكشفوا فلم يكن من دأبه سرد ما قالوه كأصحاب العلوم المتوسطين بل دأبه داب المحققين الذين بلغوا غاية التحقيق و التدقيق الا إذا دعته اليه ضرورة و الله المستعان ، فاقول رب كلمة تكون قبيحة نافرة سمجة فى غير القرآن و هى تكون حسنة ملائمة فى نظم القرآن بحيث لا ينوب غيرها منابها و ليس هذا الامن اعجاز صنع الله الذى اتقن كل شئ فلم يغادر فيه موضع خلة و هى لفظة « ضيزىٰ » فأنها فى موضعها لا يسدّ غيرها مسدّها ألا ترىٰ ان السورة كلها التى هى سورة النجم مسجوعة على حرف الياء فقال تعالى ﴿ و النجم اذا هوى

ما ضلّ صاحبكم و ما غوى ﴾ و كذلك إلى آخر السورة فلما ذكر الاصنام و قسمة الاولاد و ما كان يزعمه الكفار قال ﴿ الكم الذكرُ و له الانثى ، تلك اذاً قسمةٌ ضيزى ﴾ فجاءت اللفظة على الحرف المسجوع الذى جاءت السورة جميعها عليه و غيرها لا يسدّ مسدّها فى مكانها و فى هذه المعنى كلمة احسن منها و لكنها فى هذه الموضع لا ترد ملائمة لاخواتها و لا مناسبة لانها تكون خارجة عن حرف السّورة فاذا جئنا بلفظة فى معنى هذه اللفظة قلنا قسمة جائرة او ظالمة و لا شك ان جائرة او ظالمة احسن من ضيزى ، الا انا اذا نظمنا الكلام فقلنا ﴿ الكم الذكر و له الانثى ﴾ تلك اذن قسمة ظالمة لم يكن النظم كالنظم الاول و صار الكلام كالشئ المعوز الذى يحتاج الى تمام و هـذا لا يخفى على من له ذوق و معرفة بنظم الكلام نبّه عليه ابن الاثير ذلك الاديب الكاتب فى كتابه المثل السائر الصفحة ٦٢ و لخصته بعض تلخيص و يوضح ذلك ما ذكره فى الصفحة ١١١ من كتابه ان لفظة « الاخـدع » و ردت فى بيتين من الشعر و هى فى احدهما حسنة رائقة و فى الآخر ثقيلة مستكرهه كقول ابن الصمة عبد الله من شعراء الحماسة ـــه

تلفّت نحو الحى حتى و جدتنى و جعت من الاصغاء ليتا و اخدعا

وكقول أبى تمام ـــه

يا دهر قوم عن اخدعيك فقد اضججت هذا الانام عن خرقك

الا ترى انه و جد لهذه اللفظة فى بيت أبى تمام من الثقل على السمع و الكراهة فى النفس اضعاف ما و جدلها فى بيت ابن الصمه عبد الله من الروح و الخفة و الأيناس و البهجة ، اه اقول و عن لطائف هذه الكلمة انه

انه أُومى بها الى تقبيح تلك القسمة فان اللفظ عنوان للمعنى و من داب البلغاء انهم يشيرون إلى تهويل المعنى بتهويل اللفظ و هذا موضوع واسع ينبغى ان يفرد بالبحث و ليس هذا موضعه ،

و ربما تكون الكلمة حسنة رائعة إذا أتيت بها مفردة ثقيلة متنافرة إذا أتيت بها بمجموعة و ربما يعكس الامر فالقرآن المجيد فى الاولى يأتى بها مفردة و لا ياتى بها جمعاً ابداً و فى الثانية يأتى بها جمعاً و لا ياتى بها مفردة اصلا ، مثال الثانى ما قال ابن الاثير فى كتابه الصفحة ١١١ و من هذا النوع الفاظ يعدل عن استعمالها من غير دليل يقوم على العدول عنها ولا يستغنى فى ذلك الا الذوق السَّليم و هذه موضع عجيب لا يعلم كنه سرّه فمن ذاك لفظة « اللبّ » الذى هو العقل لا لفظة اللب الذى تحت القشرة فانها لا تحسن فى الاستعمال الا بمجموعة وكذلك وردت فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة و هى بمجموعة و لم ترد مفردة كقوله تعالى ﴿ و ليتذكرّ أُولو الالباب و ان فى ذلك لذكرى لاولى الالباب ﴾ ، اه و من اشباهها لفظة « الاكواب » و لفظة « الارجاء » فانهما لم تردا فى القرآن الا بصيغة الجمع و ترك المفرد فيهما و هو الكوب و الرجا بالقصر و مثال الاول كما قاله صادق الرافعى لفظة « الارض » فأنها لم ترد الامفردة فاذا ذكرت السماء بمجموعة جئ بها مفررة فى كل موضع منه و لما احتاج إلى جمعها اخرجها على هذه الصورة التى ذهبت بسرّ القصاحة و ذهب بها حتى خرجت من الروعة بحيث يسجدلها كل فكر سجدة طويلة و هى فى قوله تعالى ﴿ الله الذى خلق سبع سمٰوات و من الارض مِثلهُنّ ﴾ ، و لم يقل سبع ارضين لهذه

الجشأة التى تدخل اللفظ و يختل بها النظم اختلالاً و قال ابن النفيس فى كتاب الطريق إلى الفصاحة قد تنقل الكلمة من صيغة لاخرى او من وزن لآخر او من مضى لاستقبال او بالعكس فتحسن بعد ان كانت قبيحة و بالعكس فمن ذلك « خود » بمعنى اسرع قبيحة فاذا جعلت اسما خود أو هى المراة الناعمة قلّ قبحها و كذلك « ودع » يقبح بصيغة الماضى لانه لا يستعمل ودع الا قليلاً و يحسن فعل امر و فعلا مضارع و لفظ اللبّ بمعنى العقل يقبح مفرداً و لا يقبح بجموعاً كقوله تعالى ﴿ لاولى الالباب ﴾ ، قال و لم يرد لفظ اللبّ مفرداً الا مجازاً كقوله صلى الله عليه و سلم ما رأيت من ناقصات عقل و دين أذهت للب الرجل الحازم من احداكن او مضافاً اليها كقول جرير ـــه

يصر عن ذا اللبّ حتى لاحراك به و هن اضعف خلق الله اركانا

و كذلك « الارجاء » تحسن بجموعة كقوله تعالى ﴿ و الملكُ على ارجائها ﴾ و لا تحسن مفردة الا مضافة كقولنا رجا البئر و كذلك « الاصواف » تحسن بجموعة نحو قوله تعالى ﴿ و من اصوافها ﴾ و لا تحسن مفردة كقول أبى تمام ـــه

فكأنما لبس الزمان الصوفا

و مما يحسن مفرداً و يقبح بجموعاً المصادر كلها و كذلك طيف و طيوف و بقعة و بقاع و إنما يحسن جمعها مطلقاً مثل بقاع الأرض ، اهـ حكاه الشيخ بهاؤ الدين السبكى فى عروس الأفراح .

و إذا كان لمعنى واحد عدة الفاظ و لم يخلُ منها واحد من الثقل و الاستكراه او الابتذال فالقران الحكيم فى مثل هذه المواضع يعبر عن هذا

المعنى بلفظ يؤدّى اصل الحقيقة و يعدل عن اللفظ الموضوع لها ، قال ابن الاثير الصفحة ٧١ من كتابه « و إن شئت أن تعلم من سرّ الفصاحة التى تضمّنها القرآن فانظر إلى هذا الموضع فانه لما جيئ فيه بذكر الآجرّ لم يذكره بلفظه و لا بلفظ القرمد و لا بلفظ الطوب الذى هو لغة اهل مصر فإن هذه الأسماء مبتذلة لكن ذكر فى القرآن على وجه آخر و هو قوله تعالى ﴿ و قال فرعون يآيها الملا ما علمتُ لكم من الهٍ غيرى فاوقدلى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحاً ﴾ فعبر عن الآجر بالوقود على الطين ـ قال الراقم و ذكر المفسرون فى هذا التعبير نكتة أُخرى ايضاً و هى انه لم يكن الناس يعرفون قبل فرعون الطوب و القرمد ففى هذا التعبير تعليم إلى هذه الصنعة و كشف عن حقيقة القرمد و لا تزاحم فى النكات و الاسرار ـ و بالجملة فلاسرار فصاحة كتاب الله الباهر و روعة اعجاز المحير بدائع و روائع ما يذهب بالألباب و حسنها و بهاؤها و ماءها و نماءها و رونقها و بهجتها و حسن سبكها و روعتها و هذا الموضوع بحر زاخر لا ساحل له و إنما اوردت بقطرة من البحر و ثد من العين الثرثاره و حاشاه ان تحيط بجميع محاسنه عقول الانام و قد تاهت له الاحلام و طاشت فى بواديها الظنون و الاوهام قال ابن الاثير فلينعم الخائضون فى هذا الفن نظرهم و يعلموا ان فى الزوايا خبايا و إذا الغموا الفكر فى اسرار الألفاظ عند الاستعمال و اغرقوا فى الاعتبار و الكشف و جدوا غرائب و عجائب ، اه ـ فهذه وجوه من وجه الاعجاز بالمفردات صدعت بقدر يسير منها ايضاحاً لكلام الشيخ رحمه الله .

قال الشيخ و اما اعجازه من جهة التركيب و الترتيب فهو ان القرآن الحكيم ينتقى تركيباً للمفردات من عدة تراكيب يسعها المقام و لا ينبو عنها الذوق بادى الفكرة الا ان القرآن يختار تركيباً لا يمكن ابلغ منه و اوفى بالحقيقة و أجدى فى صدع الغرض مثاله قوله تعالى و جل ذكره ﴿ و جعلوا لله شركآء الجن ﴾ ، وكان حق العبارة بادى الرأى و جعلوا الجن شركاء لله ، و لكن غرض التنزيل انهم جعلوا لله شركاء لا لغيره يعنى جعلوا شركاء للآله الواحد الذى هو اغنى عن الشريك ففى التقديم لله استعظام بقبح ما ارتكبوه فهذه سفاهة ثم انهم لم يقتنعوا بهذا بل جعلوا شركاءه الجن الذى هو مخلوق ضئيل من مخلوقه فهذا استعظام آخر لما فعلوه و استقباح لتشريكهم الجنّ معه سبحانه و تعالى فهذه سفاهة أُخرى فالغرض الذى سيق له الكلام لا يتأتى الا بالتركيب الذى اختاره التنزيل العزيز فالتنزيل يغير التركيب الذى يقتضيه ظاهر مساق العباره لاسرار لطيفة ربما تجل عن الأفهام و تدق عن الأحلام ، قال الراقم و هذا الذى اختاره الشيخ رحمه الله فى غرض التعبير القرآنى يحتمل أن يكون مبنيا عل ان الجن بدل من شركاء كما اختاره الفرّاء و أبو اسحاق كما حكاه ابن سعود فى تفسيره و كما اختاره الحوفى و أبو البقاء كما نقله أبو حيّان فى بحره و نهره ـ و هذا و إن كان يرد عليه إن القول بالبدلية لا يصح لانه لا يستقيم ذكر البدل موضع المبدل منه فقط و هو شرط لكن بمكن البناء على مذهب من لم يشترط الكلية فى هذه الضابطة الأعرابيه و ليس هذا موضع البحث عنه و يحتمل أن يكون الجن مفعولاً اولاً قدم المفعول الثانى عليه للنكتة المذكورة و هو المتبادر من كلام الشيخ ح

و على

و على كلا التقديرين لِلهِ متعلق بشركاء قدم للاهتمام الذى اسلفته فى بيان المعنى و راعيته فى تفسير اللفظ و على الاحتمالين يدور كلام الزمخشرى فى كشافه فليراجع و لفظ الزمخشرى « فان قلت فما فائدة التقديم قلتُ فائدته استعظام ان يتخذ لله شريك من كان ملكاً او جنياً او انسياً و لذلك قدم اسم الله على الشركاء » اه ـ و ههنا اعاريب اخرى لا طائل فى سردها و لا يصح بناء كلام الشيخ رحمه الله كله عليه هذا ـ و قال الشيخ رحمه الله فى خاتمة كتابه نيل الفرقدين و من المعلوم ان لا ترادف فى المفردات عند المحققين و كذا فى المركبات فضرب زيد عمراً و ضرب عمراً زيد و زيد ضرب عمراً كلها تراكيب متغايرة فى المعانى الثوانى وكذا زيد قائم و قائم زيد و زيد القائم و القائم زيد ، اه ـ

ثم اقول و هذه الجهة من الترتيب و التركيب من جهة المعنى تدور عليها البلاغة المعنوية و ربما تحتوى على دقائق قلما تتنبّه له الا ذو حظّ عظيم من علوم البلاغة امثال الزمخشرى و الجرجانى إن كان لهما امثال فكان هذه الجهة اعنى و اهمّ فاعتنى به الشيخ رحمه الله و للترتيب جهات أُخرى من التلاؤم و الروعة و البهاء و السلاسة و دفع الهجنة من اللفظ و الثقل على السمع و الاستكراه للنفس بحيث يصاغ فى احسن ترتيب و يفرغ فى ابدع قالب نبّه عليه ابن الاثير و غيره من علماء الفن و لا بأس بأيراد بعض الامثلة اداء لحق المقام و ايضاحاً للمرام قال فى المثل السائر الصفحة ٥٧ و اعلم ان تفاوت التفاضيل يقع فى تركيب الألفاظ اكثر مما يقع فى مفرداتها لانّ التركيب اعسر و اشق الا ترى ان الفاظ القرآن الكريم من حيث انفرادها

قد استعملها العرب و من بعدهم و مع ذلك فانه يفوق جميع كلامهم و يعلو عليه و ليس ذلك الا لفضيلة التركيب و هل تشكّ أيها المتأمّل لكتابنا هذا إذا فكرت فى قوله تعالى ﴿ و قيل يا ارضُ ابلعى مآءك و يا سماء اقلعى و غيضَ الماءُ و قضىَ الامر و استوت على الجودّى و قِيلَ بعداً للقوم الظالمين ﴾ ، إنك لم تجد ما و جدته لهذه الألفاظ من المزية الظاهرة الا لامر يرجع إلى تركيبها و إنه لم يعرض له هذا الحسن الا من حيث لاقت الأولى بالثانية و الثالثة بالرابعة و كذلك إلى آخرها فان ارتبت فى ذلك فتأمل هل ترى لفظة منها لو اخذت من مكانها و افردت من بين اخواتها كانت لابسة عن الحسن ما لبسته فى موضعها من الآية و مما يشهد لذلك و يؤيّده إنك ترى اللفظة تروقك فى كلام ثم تراها فى كلام آخر فتكرهها فهذا ينكره من لم يذق طعم الفصاحة و لاعرف اسرار الألفاظ فى تركيبها و انفرادها و سأضرب لك مثالاً يشهد بصحة ما ذكرته و هو انه قد جاءت لفظة واحدة فى آية من القرآن و بيت من الشعر فجاءت فى القرآن جزلة متينة و فى الشعر ركيكة ضعيفة فأثر التركيب فيها هذين الوصفين الضّدين اما الآية فهى قوله تعالى ﴿ فاذا طعمتم فانتشروا و لا مستانسين لحديث انَّ ذلكم كان يؤذى النبىَّ فيستحى منكم و اللهُ لا يستحى من الحق ﴾ ـ و اما بيت الشعر فهو قول أبى الطيب المتنبى ـــه

تلذّ له المروة و هى تؤذى ومن يعشق يلذّ له الغرام

و هذا البيت من ابيات المعانى الشريفة الا ان لفظة تؤذى قد جاءت فيه و فى الآية من القرآن فحطت من قدر البيت لضعف تركيبها و حسن موقعها

فى تركيب الآية فأنصف أيها المتأمل لما ذكرناه و اعرضه على طبعك السليم حتى تعلم صحته و هذا موضع غامض يحتاج إلى فضل فكرة و امعان نظر و ما تعرض للتنبيه عليه احد قبلى و هذه اللفظة التى هى « تؤذى » إذا جاءت فى الكلام فينبغى أن تكون مندرجة مع ما يأتى بعدها متعلقة به كقوله تعالى ﴿ ان ذلكم كان يؤذى النبىّ ﴾ و قد جاءت فى قول المتنبى منقطعة الا ترى انه قال تلذ له المروّة و هى تؤذى ، ثم قال و من يعشق يلذ له الغرام ـ فجاء بكلام مستأنف و قد جاءت هذه اللفظة ، اه ـ .

و قال فى الصفحة ٧٤ و إما إذا صارت مركبة فلتركيبها حكم آخر و ذاك انه يحدث عنه من فوائد التاليفات و الامتزاجات ما يخيل للسّامع ان هذه الألفاظ ليست تلك التى كانت مفردة و مثال ذلك كمن أخذ لآلى ليست من ذوات القيم الغالية فالفها و أحسن الوضع فى تأليفها فخيل للناظر بحسن تأليفه و اتقان صنعته إنها ليست تلك التى كانت منثورة مبدّدة و فى عكس ذلك من اخذ لألى من ذوات القيم الغالية فيفسد تاليفها فإنه يضع من حسنها و كذلك يجرى حكم الألفاظ العالية مع فساد التاليف و هذا موضع شريف ينبغى الالتفات اليه و العناية به ، آه .

قال الإمام الرازى فى اواخر تفسير سورة البقرة الصفحة ٥٦٤ الجلد ٢ من تفسيره مفاتيح الغيب و من تأمل فى لطائف هذه النظم و فى بدائع ترتيبها علم ان القرآن كما انه معجز بحسب فصاحة الفاظه و شرف معانيه فهو ايضاً معجز بحسب ترتيبه و نظم آياته و لعل الذين قالوا انه معجز بحسب اسلوبه ارادوا به ذلك ، آه .

و قد نبّه الامير اليمنى فى الجزء الثالث من الطراز فى الفن الثالث على مزية الفاظ القرآن بحيث اصبح فى اعلى ذروة الفصاحة و مقتعد صهوة البلاغة على اربعة وجوه فقال فى الصفحة ٢١٩/٣ المزايا الراجعة إلى الفاظه تارة ترجع إلى مفردات الحروف و تارة إلى تاليفها من تلك الاحرف و مرة إلى مفردات الألفاظ و مرة إلى مركباتها فهذه اربعة اوجه لابدّ من اعتبارها فى كون اللفظ فصيحاً و كلها حاصلة فى القرآن على اتم وجه و اكمله آه ثم فصل الوجوه الأربعة و مثل لها من القرآن مثالاً حاوياً لهذه ألمزايا الأربعة قوله ﴿ و قيل يا ارضُ ابلعى ماءك - إلى آخر الآية ﴾ ثم اطنب الكلام فيها فى ابراز بدائعها و ظواهر محاسنها و مكامنها افراداً و تركيباً ، و ضعاً و ترتيبا و لفظاً و معنىً من جهة البيان و المعانى و البديع من الصفحة ٢٢٦ إلى الصفحة ٢٥٠ بحيث يستولى الاريحّية على اللبيب من كل باب و يستفز الطرب للطائفه اولى الالباب بتعبير يسرى فى الحسن و ينفذ فى العروق و يهديك إلى اعجاز القرآن ذوقا و وجداناً و معرفة و ايقاناً و نوراً برهاناً و سكينة و اطمناناً جزاه الله عنا و عن سائر المستفيدين خير ما يجزى به عباده المحسنين و خوف الاطالة و الخروج عما انا بصدده من الايجاز و الاقتصار بالايماضات يكج شكيمة الزبر عن ذكرها ، هذا .

ثم إنى اظنّك أيها البصير انك اطلعت اجمالاً على ما ارشد اليه شيخنا رحمه الله من اعجاز نظم التنزيل من وجه النظم البديع و التاليف المرصع و الترتيب المحكم فى استنارة من تلك القبسات و استشفاءً بتلك النفثات و لعلك علمت جهتين فى فصاحة المفردات من جهة تلائم الحروف بعضها ببعض و خفتها

و خفتها على السمع و سلاستها فى النطق و من جهة اداء الحقيقة المطلوبة بمعانيها و اغراضها التى لا يطلع على حقائقها الا العليم الخبير و فى فصاحة المركباب من جهة ضم بعضها ببعض و ايراد كل كلمة فى محلها كان بعضها آخذ بحجز بعض ثم من جهة معانيها التى صيغ له الترتيب الانيق و ينط به الغرض الدقيق و فيما ذكرنا مقنع و كفاية للبصير غير بعيد أن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب او القى السمع و هو شهيد .

و اما الاعجاز باعتبار المقاصد فقال الشيخ رحمه الله و أريد بالمقاصد ما يلزم المخاطبين تعلمها و الانصباغ بصبغها و المعاملة بها مع المخلوق بحسب ما يقتضيها كما يذكره علماء الامة فى شرح اسماء الله الحسنى و لفظ الشيخ بالاردوية « مقاصد سے میری مراد مخاطبین کو سبق دینا یا لینا ھے جیسا علمائے کرام نے اسماء حسنیٰ کی شروح میں لکھا ھے » وكانت كلمات الشيخ موجزة فلم ينشرح لها صدرى كما يليق فسألتُ عنها شيخنا المحقق العثمانى طال بقاءه و عرضتها عليه فأفادنى و ارشدنى إلى مطالعة « قطب الارشاد » للعارف الأفغانى فقير الله بن عبد الرحمن التراسى الجلال آبادى العلوى الحنفى فدونك الآن ملخص ما استفدته منقحاً و اضحاً فأقول ان هناك اعنى فى اسماء الله الحسنى ثلاثة امور ـ الاوّل تحقق هذه الأسماء يعنون به ان بتحقيق العبد معانى هذه الأسماء على ما اتّصف به الله سبحانه و تعالى و يحصل معرفتها

(١) كانت هناك عدة اقوال للعلماء و العرفاء فى تفاصيل المراتب الثلاث فصدعت بالذى تحقق لدىّ و تنقح و عبّرت عنها بلفظى بزيادات لكشف الحقيقة و اداء الغرض و تفهيم المقصود ، و الله ولى التوفيق ١٢ منه .

بما يليق بكبريائه و عظمته جل مجده فلا يقيس به مخلوقاً من خلقه و لا صفة له بصفات مخلوقه فيعلم ان له بصراً لا كأبصار المخلوق و سمعاً لا كأسماعهم و هكذا و يقدّسه و يمجّده عمالا يليق بجلال كبرياءه و مجده ليس كمثله شئ و هو السميع البصير إلى ما انتهى اليه مقدرة البشر ـ الثانى التعلق بهذه الأسماء يريدون انه لما كان الله سبحانه و تقدس متصفاً بصفات كبريائه الاسنى و متسما باسمائه الحسنى فما ذا يكون حظ العبد منها و كيف يكون علاقة العبد مع خالقه فقالوا أن يستغرق العبدُ فى جلال صفاته و جمال اسمائه بحيث يستشعر بها قلبه كل حين و ينقاد لآثارها و انورها بما يستدعيه و يذعن لها بقلبه بما يقتضيه حتى يرتسم فيه الآثار مما انعكس عليه من الأنوار ـ و الثالث التخلق بها يحاولون ان ينصبغ العبد بأمثال تلك الصفات الرّبانية و يستسلم لها فعلاً و عملاً و يصبح مظهراً لكل صفة من صفاته تبارك و تعالى فيعامل المخلوق بحيث يلوح فيه آثار الاستخلاف و النيابة حيث جعله خليفة فى الأرض و مظهراً لصفاته كما فى الحديث إن الله خلق آدم على صورته فجعله سميعاً بصيراً و هداه إلى الخير و السرّ و الحق و الباطل فالمطلوب منه ان يعمل ما يتقاضى منه شئونه تعالى فيتخلق بالملكات الجليلة و الصفات الحميدة و الافعال الحسنة و الاعمال القيّمة و يدين بها البرّية كلها من غير غرض يعود اليه نفعه عاجلاً و من غير منفعة ترجع اليه فى الدّنيا بل لا يريد عامله الى رضاه و لا يطلب الا وجه مولاه و يحسب انه اداء لما و جب على ذمّته و قضاء لما يتقاضاه منصبه ، فهذا هو التخلق باسماء الله سبحانه و تعالى و هذا هو الانصباغ بصفاته جلّ و علا و لنمثّل لك مثالاً يتضح منه هذه

هذه المراتب الثلاث ،

فالرحمن اسم من اسماء الله الحسنى فمرتبة التحقيق فيه هو معرفته بأنّ لله رحمة عظيمة هى له صفة ازلية ابدية باقية ببقاءه و إنه موصوف بهذه الصفة حقيقة و إن لم يدرك كهُنها و لم يعرف حقيقتها و إن ما فى المخلوق من صفات الرحمة هى آثار من اثرها و نور من انوارها و انبجاس من عينها و انفجار من معينها و هو سبحانه اجلّ من أن يشاركه فيه مخلوقه او يساهمه فيه عبيده ﴿ و ليس كمثله شئٌ و هو السميع البصير ﴾ ، و مرتبه التعلق فيه أن يخضع له العبد بقواه و جوارحه و ظاهره و باطنه فى قعوده و قيامه و يقظته و منامه و يشكره شكراً يليق لرحمته التى لا تحد بحدّ و لا تحصى بعد جوارح و اركاناً و قلباً و لساناً . و يعلم ان له مِنّاً و احساناً الينا فيعجب الطاعة علينا و مرتبة التخلق به ان يرحم المرأ على عباده و يواسيه فى مصائبه و يعينه فى نوائبه و ينفق عليه من يده و يحسب ذلك وظيفة من وظائفه و منصباً من جليل مناصبته لا يريد به الا رضاء خالقه و مالكه إلى غير ذلك من شئون رحمته تبارك و تعالى هـذا . و ليقتنع بهذا الأجمال فليس هذا موضع استيفاء البيان و إنهاء القول فيه فاقول فهذه المراتب الثلاث كل مرتبة منها لا حقة متفرعة على السابقة فالتخلق فرع التعليق و التعليق فرع التحقيق هو مرتبة الاعتقاد و الاذعان و التعليق مرتبة الصفات النفسانية و التخلق مرتبة الصفات الفعلية نعم يختلف هذه المراتب قوة و ضعفاً باعتبار مراتب العرفان و الايقان فالكامل فى الاولى هو الكامل فى الثانية و الكامل فى الثانية هو الكامل فى الثالثة و ايضاً هناك اختلاف فى جبلة العبيد و فطرتهم

من المكات الغزيزية و الاخلاق الطبيعية فمنهم من هو اقرب إلى انصباغ صفات الجلال و منهم من هو ادنى إلى صفات الجمال و الكامل منهم من كمل فيهما و ليس هذا موضع التفصيل ، ثم ان مراد الشيخ رحمه الله فيما ارى و الله اعلم ان يتعظ و يتمسك و يدين بها الناس و ان يعلم ان كمال العبد لا يحصل الا بها ويوقن ان نجاته و نجاحه و فوزه و فلاحه فى علمها و الاعتصام بعروتها الوثقى التى لا انفصام لها و يعلم ان فيها السعادة الابدية و فيها المرضاة الآلهية فتنقاد لها غرائزها الفطرية و تنصبغ فى صبغها و يكون كالميت فى يد الغسال لاطاعة احكامه و أوامره معتبراً بعبره و متعظاً بترهيبه بترغيبه متذكراً بقصصه و امثاله و متدبراً فى حقائقه و مصالحه و ما يعود اليه نفعه فى عاجله و آجله و خواتمه و فواتحه متبصراً بظواهره و بواطنه متيقظاً لتبيناته و ايقاظاته متطلقا لاشاراته و ايماضاته ،

ثم قال الشيخ رحمه الله و لتكن مقاصد القرآن ما فيه ذكر المبدأ و المعاد و صلاح معاش العباد و فلاح الدنيا و نجاح الآخرة و لفظ الشيخ رح « قرآن حكيم كے مقاصد وہ ہونے چاهئيں جن سے مبدأ و معاش و معاد اور فلاح و نجاح دنيا و آخرت وابسته هو » يعنى ان مقاصد القرآن الحكيم تنبيه العباد الى احوال المبدأ و معاد من الاعتقاد بالآله الصانع التقدير المختار خالق الأرض و السموات و ما بينهما و بان له الأسماء الحسنى و بانه خلق الخلق و لم يكن قبله شئ و بانه خلق الانسان فسواه و صوره فأحسن صوره وكرمه على سائر بريته و اودعه نوراً ما يستتطيع به ان يتفرس الامور و يتوسم الآيات الكونية و يتدبر فى نظامها البديع المحكم و مع هذا بعث الرسل

الرسل و انزل الكتب لهدايته و أمره بشريعة و دين تكفل لصلاح معاشه و معاده و ما فيه نجاته فى دنياه و آخرته و ان الدنيا متاع الغرور فلا يغرّن بهاءها و زهائها و ماءها و نماءها و راصنها و سماءها و طراوتها و طلاوتها و عذوبتها و حلاوتها فالى الله مرجعكم و ما واكم و لديه حسابكم و اليه ايابكم فتبيد هذه الدنيا و تفنى ، ألا الى الله تصير الامور ـ فبين القرآن مراتبها و احوالها و اوضاعها و اطوارها فقال ﴿ و اعلموا انما الحيٰوة الدنيا لعبٌ ولهوٌ و زينةٌ و تفاخرٌ بينكم و تكاثرٌ فى الاموالِ و الاولادِ كمثَل غيثٍ اعجبَ الكفّارَ نباتهُ ثم يهيجُ فتراهُ مُصفرّاً ثم يكونُ حطاماً و فى الآخرةُ عذابٌ شديدٌ و مغفِرةٌ و رضوانٌ و ما الحيٰوةُ الدُّنيا الا مَتاعُ الغرورَ ﴾.

ثم ان جهة اعجاز القرآن من هذه المقاصد ازهى و ازهر فانه كتاب عزيز و ذكر حكيمٌ تكفل لبيان هذه الامور على ابدع وجوه أبرعها و أفصحها و أنصعها و أرفقها بالناس و انفعها ، لا يوازيه شريعة و لا يدانيه كتاب و بحيث تقصر عنها عقول الحكماء و اولى الالباب ، احتوى صفوة الشرائع الآلهية و نخبة الاديان السّماوية فأخذ لبابها و اكمل نصابها و اختار دُررها و غررها و اصطفى نخنها و زبدها ثم عليها السعادة الابدية و النجاة السّرمدية و بها يحصل الرضاء و الرضوان و بها الفوز بنعيم الجنان و انتقى آداباً اجتماعية و احكاماً نفيسة ما تلائم نظام الفطرة و نواميس العالم ما لا يتصور فى عقول البشر اتقن منها و اعلى و له المثل الاعلى فى السماوات و الارض و هو العزيز الحكيم ، فهل فى العالم كتاب يكون عليه مدار السعادة و النجاة و هل فى البرية نظام بديع صحيح يلائم فطرة البشر غير ما جاء به القرآن

و هل غيره فى الناس صحيفة تهدى إلى الحق و إلى الصراط المستقيم و هل فى الدنيا ذكر حكيم و نور مبين يبين للناس طرق نجاح الدنيا و رُقىّ المراتب العالية و سبل الفوز فى الآخرة من جنات النعيم ، ﴿ و انه لكتابٌ عزيزٌ لا ياتيه الباطلُ من بينِ يديه و لا من خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ ﴾.

و اما اعجاز القرآن باعتبار الحقائق فقال الشيخ رحمه الله و أُريد من الحقائق الامور الغامضة التى قصرت عن ادراك العقول و الافهام و لا يكتنهها الافكار و الاوهام و ما برحت فيها العقول مختلفة و الجوانب متجاذبة فلم ينفصم فيها نزاعهم و جدالهم و لم يصب بالغرض رماهم و نضالهم كمسألة خلق افعال العباد تحيرت فيها العقلاء و تاهت فى بادية ادراكها الحكماء فلم يكشف بحثهم و فحصهم فيها حقيقة الامر فى ان ربط العبد بفعله ما ذا و كيف ؟ ثم رباط هذا الفعل الحادث بالقدرة الأزلية القديمة كيف يكون فالقرآن يختار فى امثال هذه المشكلات المعضلة تعبيراً لا يتصوّر أوفى منه فى كشف حقائقها و الصدع بمغزاها فى مقدرة البشر ـ هذا

و قد فرغت و الحمد لله من شرح ما قاله الشيخ رحمه الله فى وجوه اعجاز القرآن من الجهات الاربعة جهة المفردات و المركبات و المقاصد و الحقائق و فصّلت بعض ما اجمله بتفصيل يستحقه و انا ادرى انه لا يوفى حقه الا بان يفرد بالتاليف فى مجلد كبير حتى يكشف عن قناع الاعجاز فى كل وجه و يقايس النظير بالنظير ثم يردف بسردا مثله كثيرة حتى يتبين الأمر أ بين من فلق الصديع و صديع الفجر بيدانى اقتصرت على ماسخ لى من الاعنى و قد قيل ما لا يدرك كله و لا ارى حرجاً فى ايراد عبارته بلفظه

بلفظه ما كتبه فى بعض التحريرات و كانه متن متين بلفظ رصين و إن كنت نقلتُ بعضاً منها فى تضاعيف شرحى لغرضه ليعلم ما للشيخ من الطول و الباع الواسع فى بلاغة الايجاز و الاختصار الجامع و انه كيف يطوى المادة الغريزة فى كلمة موجزة و عبارة قصيرة ، و ليستبين لصاحب البصيرة النافذة بان جملة واحدة من كلامه ربما يفتقر إلى تأليف رسالة و ليتبين الفرق بين من و صلوا من الائمة إلى ذروة التحقيق و من دونهم من علماء الامة و كأن الشيخ رحمه الله وضع اصولاً اربعة لمفسر يأتى بعده و لا ريب ان هذه الامور الاربعة من اعنى ما يجب على مفسر القرآن ان يكابد فيها و يعانى لها فى التفسير فأقول و لفظ الشيخ رحمه الله ـ

« قرآن مجید و حکیم کا اعجاز مفردات اور ترکیب و ترتیب کلمات اور مقاصد و حقائق کی جملہ وجوہ سے ہے ، مفردات میں قرآن مجید وہ کلمہ اختیار فرماتا ہے جس سے اوفیٰ بالحقیقة و اوفیٰ بالمقام ثقلین نہیں لا سکتے مثلاً جاهلیت کے اعتقاد میں موت پر توفی کا اطلاق درست نہ تھا کیونکہ ان کے اعتقاد میں نہ بقاء جسد تھی نہ بقاء روح ، توفی وصول کرنے کو کہتے ہیں اُن کے عقیدہ میں موت توفی نہیں ہو سکتی ـ قرآن مجید نے موت پر توفی کا اطلاق کیا اور بتلایا کہ موت سے وصولیابی ہوتی ہے نہ فناء محض ، اس حقیقت کو کلمہ سے کشف کر دیا اور کہیں اس لفظ کا اطلاق اپنے اصلی معنی سے

جسد مع الروح کے وصول کرنے پر کیا ۔

ترکیب و ترتیب جیسے ﴿ و جعلوا لله شرکاء الجن ﴾ ظاهر قیاس یه تها که عبارت یوں هوتی و جعلوا الجن شرکاء لله لیکن مراد یه هے که انہوں نے خدا کے شریك ٹهیرائے کوئی معمولی جرم نہیں کیا ۔ اور وہ شریك بهی کون (جن) پس یه مراد اسی ترتیب اور نشست الفاظ سے حاصل هو سکتی هے ۔

مقاصد سے میری مراد مخاطبین کو سبق دینا یا لینا هے جیسا علماء کرام نے اسماء حسنیٰ کی شروح میں لکها هے ، مقاصد قرآن حکیم کے وہ هونے چاهئیں جن سے مبدأ و معاش و معاد اور فلاح و نجاح دنیا و آخرت وابسته هو ۔

حقائق سے میری مراد وہ امور غامضه هیں ، جن سے عقول و افکار قاصر رهے اور تجاذب جوانب اور نزاع عقلا باقی رها ۔ جیسے مسئله « خلق افعال عباد » که عبد کا ربط اپنے فعل سے کیا هے اور کیسے هے اور اس فعل کا ربط قدرت ازلیه سے کیا هے ، قرآن مجید ایسے مقام میں وہ تعبیر اختیار فرمائے گا که جس سے اوفی بالحقیقت طوق بشر سے خارج هو ۔ »

انتهی ما قاله الشیخ رحمه الله فانظر ایها المتبصر المتفقد و اجل قداح نظرك الغائر

الغائر بين ما قاله القدماء و المتأخرون فى وجوه اعجاز القرآن و بين ما افاده امام العصر شيخنا رحمه الله تَرَ الفرق الواضح فان كنت ذا نصفة فى الامر و ذا بصيرة فى المحاكمة نافذة و سابرت الانجاد و الاغوار يتجلى لك الليل من النهار فان البون بعيد و ما يوم حليمة بسرّ ، ثم اقول اما انا فقد اجلت نظرى و حدقت بصرى فيما قاله علماء الامة رحمهم الله تعالى و افاض علينا من بركاتهم و علومهم فى رسائلهم و كتبهم المفردة فى هذا الموضوع كأعجاز القرآن للامام شيخ السنة أبى بكر الباقلانى و رسالة اعجاز القرآن لابى الحسن الرمانى و اعجاز القرآن للفاضل الرافعى البصرى و ما ذكره العلماء فى اضعاف كتبهم فى غير هـذا الموضوع كالامام القاضى عياض المالكى فى الشفاء و الامير اليمنى فى الطراز و ما يذكره الشيخ عبد القاهر رحمه الله فى دلائل الاعجاز و غيرهم و ما انتقاه الشيخ الجلال السيوطى فى كتابه الاتقان من اقوال اكابر الامة من القدماء و من بعدهم فلم اقف على اجمع و ابدع مما افاده الشيخ رحمه الله فقد جلى فى هذه الحلبة و تجلى و أفاد فأجاد فلله درّه و اعلى قدره ما ابهى دُرره و ما ازهى غرره ، ثم الذى ذكره هو انواع الاعجاز يندمج فيها كثير من الجزئيات الاعجازية التى ذكروها و سردوها نعم جميع جزئيات اعجازه لا تنحصر و لا يكاد يطلع على جميعها الا العليم الخبير الذى انزله بعلمه فهو علام الغيوب و قد قال القائل ـــه

و على تفنن و اصفيه بوصفه يفنى الزمان و فيه ما لم يوصف

نعم رأيتُ فى الاتقان و توجيه النظر للجزائرى عبارة للامام الخطابى رحمه الله و ما رأيت اخصرو اجمع فى كلمات القوم منها و هى اقرب ما قالوه

إلى ما افاده الشيخ رحمه الله و إن كان فى كلامه رحمه الله ما لم يتنبه له احد فهو جذيله المحكك و عذيقه المرجب و لا يخلو نقلها عن فائدة عظيمة تتمة لمقالتى ، فدونك الآن عبارته الجامعة ، قال رحمه الله فيما حكى عنه السيوطى فى اتقانه :-

ذهب الاكثرون من علماء النظر إلى ان وجه الايجاز فيه من جهة البلاغة لكن صعب تفصيلها و صغوا فيه إلى حكم الذوق و التحقيق ان اجناس الكلام مختلفة و مراتبها فى درجات البيان متفاوتة فمنها البليغ الرصين الجزل و منها الفصيح القريب السهل و منها الجائز المطلق الرسل و هذه الاقسام الكلام الفاضل المحمود فالاول اعلاها و الثانى اوسطها و الثالث ادناها و اقربها ، فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الاقسام حصة و اخذت من كل نوع شعبة فانتظم لها بانتظام هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتى الفخامة و العذوبة و هما على الانفراد فى نعوتهما كالمتضادين لان العذوبة تناج السهولة و الجزالة و المتانة يعالجان نوعاً من الوعورة فكان اجتماع الأمرين فى نظمه مع بنو كل واحد عن الآخر فضيلة خصّ بها القرآن ليكون آية بينة لنبيّه صلى الله عليه و سلم و إنما تعذر على البشر الاتيان بمثله لأمور منها ان علمهم لا يحيط بجميع اسماء اللغة العربية و اوضاعها التى هى ظروف المعانى و لا تدرك افهامهم جميع معانى الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ و لا تكمل معرفتهم باستيفاء جميع وجوه المنظوم التى بها يكون ائتلافها و ارتباط بعضها ببعض فيتو اصلوا باختيار الافضل من الاحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله و إنما يقوم الكلام بهذه الاشياء الثلاثة

لفظ (٢٨)

لفظ حاصل و معنى به قائم و رباط لهما ناظم و إذا تأملت القرآن و جدت هذه الامور منه فى غاية الشرف و الفضيلة حتى لا ترى شيئا من الالفاظ افصح و لا اجزل و لا اعذب من الفاظه و لا ترى نظماً احسن تاليفاً و أشد تلاؤماً و تشاكلاً من نظمه ـ و اما معانيه فكل ذى لبّ يشهد له بالتقدم فى ابوابه و الترقى فى اعلى درجاته و قد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق فى انواع الكلام فامّا ان توجد مجموعاً فى نوع واحد منه فلم توجد الا فى كلام العليم القدير فخرج من هذا ان القرآن إنما صار معجزاً لانه جاء بافصح الالفاظ فى احسن نظوم التأليف مضمنا اصح المعانى من توحيد الله تعالى و تنزيهه فى صفاته و دعائه إلى طاعته و بيان لطريق عبادته من تحليل و تحريم و حظر و اباحة و من وعظ و تقويم و امر بمعروف و نهى عن منكر و ارشاد إلى محاسن الاخلاق و زجر عن مساويها و اضعاً كل شئ منها موضعه الذى لا يرى شئ اولى منه و لا يتوهم فى سورة العقل امر أليق به مودعاً اخبار القرون الماضية و ما نزل من مثلات الله بمن مضى و عائد منهم منبئاً عن الكوائن المستقبلة فى الاعصار الآتية من الزمان جامعاً فى ذلك بين الحجة و المحتج له و الدليل و المدلول عليه ليكون ذلك آكد للزوم ما دعا عليه و انباء عن وجوب ما امر به و نهى عنه و معلوم ان الاتيان بمثل هذه الامور و الجمع بين اشتاتها حتى تنتظم و تنسق امر يعجز قوى عنه البشر و لا تبلغه قدرتهم فانقطع الخلق دونه و عجزوا عن معارضته او مناقضته فى شكله (إلى ان قال رحمه الله) و قد قلت فى اعجاز القرآن و جهاً ذهب عنه الناس و هو صنيعه فى القلوب و تأثيره فى النفوس ، اهـ

وجهٌ آخر من الاعجاز

و كان يقول إمام العصر شيخنا رحمه الله و يمكن ان نعدّ هناك وجهاً آخر من وجوه الاعجاز غير ما ذكرنا بيد انى لا ابرم على احصائه من وجوه الاعجاز ، و هو ان داب النظم القرآنى فى سياق الادلة انه يستدل لامر بكلام ظاهره الخطابة و باطنه البرهان يعنى يكون بعبارته و منطوقه و مدلوله المطابق دالاً على اثبات الامر بوجه خطابىّ اقناعى و بأشارته و مفهومه و مدلوله الالتزامى يدل على الحجة البرهانيه القطعية كما ذكروه فى دليل التمانع من التنزيل العزيز فى قوله تعالى ﴿ لو كان فيها آلهةٌ الا الله لفسدتا ﴾ و بهذا أجابوا من كفر التفتازانى بقوله فى شرح العقائد بعد تقرير الآية على الوجه المستفاد من منطوقها بان الحجة اقناعية و الملازمة عادية ، فان معاصر العلامة الشيخ عبد اللطيف الكرمانى قد شنع عليه بقوله هذا تشنيعاً بليغاً حتى اكفره و استند فى التكفير إلى ان الشيخ ابا المعين النسفى رحمه الله قد اكفر رئيس المعتزلة ابا هاشم الجبائى فى كتابه تبصرة الادلة بقدحه فى الآية فى دلالتها على تعدّد الآلهة و اثبات التوحيد حتى الّف من اصحاب العلامة الشيخ علاؤ الدين محمد بن محمد بن محمد بن الحنفى البخارى رسالة مفردة فى الذبّ عن شيخه و بين سرّ ذلك و اجاب عنه جواباً يطمئن به القلب و قد ساق ملخص ذلك الجواب الشيخ الكمال بن أبى شريف فى كتابه المسامرة شرح المسائرة للمحقق الحنفى ابن همام صاحب الفتح و التحرير و الشيخ زين الدين قاسم بن قطلوبغا الحنفى فى شرحه عليها ، اقول و ملخص

و ملخص ما لخصاه مع تصرف و زيادة مفيدة ان الادلة القرآنية بمنزلة الادوية فالطبيب الحاذق يستعملها على وفق الطبائع و الغرائز من القوة و الضعف و البرودة و الحرارة و من لم يراع ذلك لكان الفساد اكثر من الاصلاح و الضرر اكبر من النفع فيطب الحاذق كل احد بما يلائم مزاج المريض الشخصى فهكذا التنزيل العزيز و الذكر الحكيم فى ادلّته على اثبات الصانع المختار و التوحيد و غيرهما يختار ما يلائم عقول المخاطبين عند نزول القرآن فالمخاطبون عند النزول جمهورهم لقصور افهامهم عن البراهين المنطقية و لعدم استيناسهم بالحجج المفيدة للقطع كان حوارهم بالتى تقصر عنها عقولهم اشدّ ضرراً عليهم كما تضر رياح الورد بالجُعل و كما يضر نور الشمس بصر الخفاش. نعم لا تكفى الاقناعيات الظنية لأصحاب الفطنة و منهم من كانوا اصحاب الفتنة و الذكاء و ان القران بلاغ للناس كافة العرب و العجم و الاسود و الاحمر و الابيض و الاصفر و كان ينبغى التنبيه او الاشارة إلى ما يفيد البرهان القاطع و مع هذا ربما يفيد الخطابة الاقناعية ما لا يفيده البرهان من شفاء القلوب و شرح الصدور فراعى القرآن فى ظواهر ادلته ما يفيد جمهورهم و لا ينبو عنها اذواق الفضلاء و اصحاب الفطنة و اشار فى بواطنها إلى ما يلزم الحجة على خواصهم و عقلائهم بالبراهين القاطعة، اهـ. هذا ملخص ما ذكره شارحا المسايرة نقلاً عن الشيخ علاؤ الدين البخارى بمحو و اثبات و كلامه طويل من شاء فليراجع فانه حسن مفيد ، و قد اشار إلى ذلك ابن رشد الفقيه الفيلسوف و عدّه وجهاً من اعجاز القران فى كتابه فصل المقال ، و الامام الرازى فى غير آية من تفسيره و اما ان الشيخ رحمه الله لم يصرّ على عده من وجوه الاعجاز

فلعل وجهه فيما ارى و الله اعلم ان هذا مما يمكن ان يلحق بالبلاغة القرآنية و يتبع بأساليبه البيانية و ان الشيخ ذكر انواعاً من الاعجاز لا افراداً منه كما أسلفته فليس هو نوع مفرد مستقل او لما نبّه عليه بعض الاعلام ان الاصوب الاتقن و الاحكم و الاسلم فى اثبات المقاصد و تقرير الاغراض هو طريقه القرآن الكريم و هذه الطريقة التى هى تشفى القلوب و تجلوا العيون و ما يذكره الفلاسفة بالبناء على قواعد اخترعوها فأكثرها لا ينتهى إلى قواطع يقينية و مع هذا فلا يسمن و لا يغنى من جوع ، .

قال الحافظ ابن تيمية رحمه الله فى كتاب العقل و النقل الصفحة ٩١ الجلد ١ (المطبوع بهامش المنهاج) كل من امعن فى معرفة هذه الكلاميات و الفلسفيات التى تعارض بها النصوص من غير معرفة تامّة بالنصوص و لوازمها و كمال المعرفة بما فيها و بالاقوال التى تنافيها فانه لا يصل إلى يقين يطمئن اليه و إنما تفيد الشك و الحيرة بل هؤلاء الفضلاء الحذاق (اراد بهم ابا حامد الغزالى رحمه الله و الشيخ ابن العربى و ابن سبعين و ابن الفارض و صاحب خلع النعلين و التلسانى و غيرهم) الذين يدعون ان النصوص عارضها من معقولاتهم ما يجب تقديمه تجدهم حيارى فى اصول مسائل الالهيات إلى اخر ما قال و اطال رحمه الله و قال قبله و انشد ابو عبد الله الرازى (يعنى الامام فخر الدين بن خطيب الرىّ) فى غير موضع من كتبه مثل كتاب اقسام اللذّات ـــه

نهاية اقدام العقول عقال و اكثر سعى العالمين ضلال
وارواحنا فى وحشة من جسومنا و حاصل دنيانا اذى و وبال

 و لم

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى ان جمعنا فيه قال و قالوا

و قال لقد تأملت الطرق الكلامية و المناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروى غليلاً و رأيت اقرب الطريق طريقة القرآن اقرأ فى الاثبات ، ﴿ الرحمن على العرش استوى ، اليه يصعد الكلم الطيبُ و العملُ الصالح يرفعه ﴾ ، و اقرأ فى النفى ﴿ ليس كمثله شئٌ ، و لا يحيطون به علماً ، هل تعلم له سمياً ﴾ ، و من جرّب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى ، انتهى ما حكاه رحمه الله .

مناط نظم التنزيل على الحوار العربى

ثم ان الشيخ رحمه الله كان يقول و القرآن الحكيم و ان تضمن ارشادات لطيفة برهانية تفيد اولى الاذواق الفلسفية و لكن مع هذا لا يجعل ذاك محطّ الفائدة و مناط الغرض فى نظمه الجزيل ، نعم من امعن الفكرة و اعمل الروية و خاض فى اسراره المطوّية و لطائفه المكنونة يهده إلى سواطع البرهان بحيث تزيده ايقاناً على ايقان ، فمناط سياق نظمه الجليل على مجارى العرف و الحوار العربى من الاقتناع بالمسلمات و القضايا المقبولة عند اهل العرف دُونَ البراهين التى تستفاد من مطاويه ، و هذا التعبير احسن و اوفق بالحقيقة مما سبق ان ظاهره الخطابة و باطنه البرهان و ان كان لفظ الظهر و البطن من تعبير الحديث ، فان هذا التعبير فى هذا الموضوع يوهم ان الله جعلهما مناطاً للكلام و محطاً للامر ، و بالجملة فمحامل الآيات القرآنية هى ما نطقت به من الحوار العرف العربى و يجعل مداراً لتفسير القرآن

ثم يستعان فى كشف علومه باشاراته المودعة فيه فى ضمن لطائفه و اسراره التى هى بحار زاخرة لم يوجد لها ساحل ـ فلا ريب أن هذا الأسلوب البديع فى الاستدلال و الاحتجاج بما يلائم الطباع كلها سواء الحكيم فيه و غيره مرمى بعيد و مسافة شاسعة و عنت ساق لا تبلغ اليه القُدر البشرية و الوسائل الحكمية و المناهج الفنّية .

مدار آية التوحيد

و كان رحمه الله يقول ليس مدار آية التوحيد يعنى قوله تعالى ﴿ لو كان فيهما آلهةٌ الا اللهُ لفسدتا ﴾ على وقوع الفساد فى النظام المشاهد و خروجهما عن هذا النظم المحكم على تعدد الآلهة كما تبادر إلى الاذهان العامّة بل المدار فيها على انه لو كان فيهما غير الله الواحد القهار سبحانه و تعالى ﴿ الهٌ ﴾ او آلهة لفسدتا يعنى فسادهما متعين على عدم الله الحق الواحد فيهما سواء كان ذلك الغير الهاً واحداً او آلهة متعددة فالآية على هذا الغرض مناطها و محط فائدتها و الى هذا المعنى اشار فى قصيدته ضرب الخاتم على حدوث العالم بقوله ـــه

و لو كان الا الله قد قام فيهما لقد فسدا بالجور يجرى لما هنا

قال الراقم و هذا هو السّر فيما قاله النحاة ان « الا » ههنا ليست استثنائية بل للصفة بمعنى « غير » حيث حققوا انه لا يحمل « الا » ههنا على استثناء كيف و لو حملت لصار المعنى لو كان فيهما الهة و استثنى عنهما الله لفسدتا و مفادها انه لو لم يستثن منهم الله تعالى بل كان هو معهم ما فسدتا فكيف

فكيف يكون الآية دليلاً على التوحيد ، اذ من الجائز على هـذا التقدير ان يكون فيهما الهة غير مستثنى عنها الله ، نعم إذا كانت بمعنى غير فتدل على ان جميع من كان مغايراً لله الواحد تعالى سواء كان واحداً او متعدّداً و سواء كان هو معهم او لم يكن لفسدت السماوات و الأرض و بطل هذا النظام المشاهد المحكم البديع كما فى قوله تعالى ﴿ و ما كان معه من الهٍ اذاً لذهب كلُّ الهٍ بما خلق و لعلى بعضهم على بعض ﴾ فهذا هو منطوق الآية و له سيقت ، نعم يستفاد بطلان التعدد من مفهومها فهكذا فليفهم و ليحقق ، ثم ان برهان التمانع المشار اليه فى مطاوى الآية الكريمة له عدة طرق قرّرها و حققها عليها علماء الامة منها ظنّية و منها قطعية و الامام فخر الدين الرازى رحمه الله فى تفسيره الكبير على بضع و عشرين وجهاً بعضها برهانية و بعضها اقناعية من شآء فليراجع اليه فيجد هناك ما يشفى صداه و يطفئ وحره و الله الموفق و الهادى الى سواء الطريق .

القدر المعجز من القرآن المجيد

و اعلم ان العلماء قد اختلفوا فى القدر المعجز من القرآن و ذكر طرفاً من الآراء الامام الباقلانى رحمه الله فى كتابه اعجاز القرآن الصفحة ٩٨ (مطبوع السّلفية) و قال شيخنا رحمه الله المعجز عندى اقصر آية من الآيات نعم و هذه الجهة و الاعجاز فى هذا القدر اغمض و ربما تخفى على الكملة البارعين و لا يتجلى مرماها الا على من كابد فى الخوض على المعانى و غاص فى بحر البيان و المعانى و راعى سائر الجهات التى سلكناها فى مسلك الاعجاز ،

قال الشيخ رحمه الله و ما نقل فى الفقه عن فقيه العراق امام الأئمة أبى حنيفة رحمه الله من ان آية قصيرة من آيات القرآن تكفى عن القراءة المفروضة فى الصلوة و ما نقل عنه انه يجوز للجنب قراءة ما دون آية و لا يجوز قراءة آية كاملة الاعلى طريق الدعاء او الثناء فيمكن ان يكون مبنيّاً على ان القدر المعجز من القرآن عنده هو قدر آية و لو كان البناء على هذا فهو من غاية دقة نظر الامام و سموكعبه و لا ريب فهو فقيه الامة تغلغل فى الحقائق و الاسرار و لم ار من الفقهاء من صرّح على بذلك إلا انهم اكتفوا فى الاحتجاج له بأنّ الاقلّ منها لا يطلق عليه اسم القرآن و الله اعلم - و قال رحمه الله نعم لا أقدر على تعيين القدر المعجز من الآية الطويلة ، هذا

خاتمة لموضوع الاعجاز

و اعلم أنى قد بثثت فى هذه الاوراق ما افاده الشيخ رحمه الله ما يتعلق بالاعجاز و ما وصل اليه فكرى من شرح كلامه البارع بما يلائم هذه المقدمة بقول وسط فلعلك علمت منه منزلته فى خوض المشكلات و الغوص فى حقائق التنزيل و بعد مداركه الشاسعة فى اعجاز القرآن و من اجل ذلك كان يقول قد وضع الله فى طبيعتى معياراً للفصاحة و البلاغة يتبين عندى البليغ و الفصيح من غيرهما و تستبين عندى مزايا هما و مراتبهما ذوقا و وجداناً فلا أقلد فيهما احداً و كم من اشعار قد حوا فى فصاحتها و هى عندى فصيحة و كم من كلمات طعنوا فى بلاغتها و هى عندى بليغة ، أقول و من امثلته ان عجز شعر أبى الطيب ـــه

و تسعدنى فى غمرة بعد غمرة سبوح لها منها عليها شواهد

قال بعض علماء الفن انه مخلّ بالفصاحة بكثرة التكرار فقال الشيخ رحمه الله ليس فيه شئ يقدح فى فصاحته بل هو عندى فصيح ثم لما كان رحمه الله بهذه الذروة الشامخة من الفصاحة و علوم البلاغة كان لا يرضى من اعجاز القرآن للباقلانى كل الرضاء و كان يقول الامام الباقلانى رحمه الله هو متكلم من أئمة المتكلمين و ليس هذا فنّه و إنما هو فن الشيخ عبد القاهر الجرجانى و الشيخ العلامة الزمخشرى و قد جعل الله لكل فن رجالاً ، فللبلاغة رجالها و للكلام رجاله اقول و هـذا كما قال ابن الاثير الجزرى فى المثل السائر الصفحة ١٤٨ و بلغنى عن أبى الفتح ابن جنى رحمه الله انه شرح ذلك (اراد به قول أبى الطيب ـــه

تبلّ خدى كلما ابتسمت من مطر برقه ثناياها)

فى كتابه الموسوم بالمفسر الذى الّفه فى شرح شعر أبى الطيب فقال انها كانت تبرق فى وجهه فظنّ ان ابا الطيب ارار انها كانت تبسم فيخرج الريق من فمها و يقع على وجهه فشبّه بالمطر و ما كنتُ اظنّ ان احداً من الناس يذهب و همه و خاطره حيث ذهب و هم هذا الرجل و خاطره و إذا كان هذا قول إمام من أئمة العربية تشدّ اليه الرحال فما يقال فى غيره لكن فنّ الفصاحة و البلاغة غير فنّ النحو و الاعراب ، اهـ و قال فى الصفحة ١١٣ و اسرار الفصاحة لا تؤخذ من علماء العربية و إنما توخذ منهم مسألة نحوية او تصريفية او نقل كلمة لغوية و ما جرى هذا المجرى و اما اسرار الفصاحة فلها قوم مخصوصون بها ، اهـ

استطراد :- قال الراقم و كلام الشيخ رحمه الله ذلك على كتاب الباقلانى كنت سمعته منه من برهة من الدهر السنه ١٣٤٦ هجرى فحل فى قلبى لما كنت اعتقد اجمالاً فى حق الشيخ رحمه الله بلوغه الى غاية قصوى و امد بعيد ، ثم لما ارتقى بى الحال و وفقنى الله تعالى لمطالعة كتاب الباقلانى و عرفت منزلة كتابه السّامى ترددت فى كلام الشيخ اعلى الله قدره فى حق كتابه و لم يبق منى ما كنت اقدر من قدر كلامه هذا فى حق كتابه هذا ، ثم امعنتُ النظر فى كتاب الباقلانى و استجممت القريحة فى كلام الشيخ و استمريت اخلاف الفكر فيما قاله فى باب الاعجاز ثم اطلت الفكرة فى كلام الشيخ رحمه الله و كلام الباقلانى رحمه الله و ما بينهما من البون فعلمت علم يقين ان ما قاله الشيخ فى حق كتابه هو حق بأعتبار منزلته فى معرفة اعجاز القرآن و حق له ان ينقد مثله على كلام الباقلانى ثم استقريت الامور التى ادير عليها النقد فوجدتها بحيث شفى الله بها صدرى و أُشير اليها فى غاية الاجمال .

فأقول اما اولاً فهو ان كتاب الباقلانى بين يديك اذا اجلت نظرك الغائر و بصرك النافذ فى انجحادها و اغوارها لم تقف له على امر فى باب الاعجاز لم يسبق اليه و لم تجد باباً مغلقاً من الاعجاز يكون فاتحاً له و الغير متطفلاً عليه بل الامام الخطابى رحمه الله و الواسطى رحمه الله و الجاحظ و غيرهم قد سبقوا الى ما قاله فى كتاب الاعجاز نعم فصّل ما اجملوه و فسّر ما ابهموه و اعطى كل مقام حقّه من الشرح بيد انه لا يستبعد مثل هذا من مثل الباقلانى و لا يورث العجب من شانه ، و من البعيد ان يقال لم يطلع على

على كلام من قبله فى هـذا الباب ، ثم مع هذا قد اسهب الكلام بحيث لا يسأم الناظر فى امور لا مناط عليها فى كشف وجوه الاعجاز و اما كلام الشيخ رحمه الله فبين يديك امعن فيه نظرك مرة غير مرة و حدّد فيه بصيرتك بدا لك فيه ما لم يسبق اليه انشاء الله تعالى بل هو السّابق فى هذه الحلبة الفسيحة التى تكل دون جوبها مهارى الافكار ، و اما ثانياً فقد قال الشيخ رحمه الله اعجاز جميع القرآن اجلىٰ عندى من طلوع الشمس عند شروقها (و قد مرّ وجهه) وكان اقصر آية عنده معجز و لم يختلف عنده الاعجاز و ضوحاً فى البعض و خفاءً فى البعض الآخر نعم مراتب الاعجاز و طبقات البلاغة تتفاوت فى ما بينهما غير انه امر آخر و اما الباقلانى رحمه الله فقال فى الصفحة ١٦٥ و ان كنا نعتقد ان الاعجاز فى بعض القرآن اظهرو فى بعض ادق و اغمض ، اه ـ و قال فى الصفحة ١٦٣ و ان كانت الدلالة فى البعض ابين و اظهرو الآية اكشف و ابهر ، اه ـ و قال فى الصفحة ١٩٩ ، ألا ترىٰ ان الاعجاز فى بعض السور و الآيات اظهر و فى بعضها اغمض و قد لا يحتاج فى النظر فى حال بعضها إلى تأمّل كثير و لا بحث شديد حتى يتبين له الاعجاز و يفتقر فى بعضها إلى نظر دقيق و بحث لطيف حتى يقع على الجليلة و يصل إلى المطلب و لا يمتنع ان يذهب عليه الوجه فى بعض السور فيحتاج ان يفزع فيه الى اجماع او توقيف او ما علمه من عجز العرب قاطبة عنه ، آه .

هذا ما تيسّر لى البحث عنه فى هذه المقدمة عن وجوه الاعجاز و ما هو الاعنىٰ فى هذا الباب و قد أتيت بها بحول الله و حُسن توفيقه بلُباب ما فى هـذا الباب بحيث يغنى عن كتاب مفرد عند اولى الالباب و الله

ولى التوفيق و الاعانة و صلى الله تعالى على افصح العرب و العرباء و على آله و صحبه و بارك و سلم تسليما كثيراً كثيراً .

كلمات منثورة للشيخ رحمه الله

و ليعلم ان للشيخ رحمه الله بدائع كلمات منثورة اصبحت بها اطراف من القرآن منظومة فهى دُرر و جواهر او حكم و بصائر تجرى مجرى الاصول فى اساليب القرآن المجيد فأسردها منتسقة منتظمة مع ايضاح و بالله التوفيق و العصمة .

طريق القرآن غير طريق التأليف

كان يقول رحمه الله حوار القرآن الكريم لم يجئ على سرد الجزئيات على نسق كتب الفتاوى الفقهية او توزيعها على مواد العددية كما فى المؤلفات الجديدة من علماء العصر و إنما جاء على حوار العرب بعطف بعض على بعض و من ثم اختلفت الآراء فى ان مواضيع الآى المتسقه فى سياق واحد ، فربما يخفى ان موضوع الآية الثانية مثلاً هل هو موضوع الآية الاولى او اعمّ منه او اخصّ او متعلق به بتعلق آخر و لا يخفى انه أمر مهمّ مما يحرى ان يعتنى به اعتناء .

التقديم و التاخير فى اجزاء الواقعة الواحدة

و كان يقول رحمه الله ليس موضوع التنزيل العزيز استيعاب التاريخ و سرد الوقائع كلها فالايجاز فى مقام و الاطناب فى مقام آخر و التقديم فى اجزاء الواقعة فى موضع و تاخيرها فى موضع آخر لحكم و اسرار لطيفة ربما تقصر عنها العقول و للتنزيل العزيز فى ذلك خضائص دقيقة تحتاج

 إلى

إلى استجمام القريحة و تلطيف الفكرة و امعان للنظر بعيد .

مشكلات القرآن تربوا على مشكلات الحديث

و كان يقول ان مشكلات القرآن تربوا على مشكلات الحديث ، بيد ان الأسف على ان الامة المرحومة لم تخدم القرآن مثل خدمة الحديث وكان الاعتناء به اهمّ منه بالحديث و قد مرّ قوله من انه ليس فى ذخيرة التفاسير المطبوعة تفسير للقرآن يوازى فى الرتبة فتح البارى لصحيح البخارى حاوياً لمزاياه و صادعاً بغوامضه .

استيفاء التعبير القرآنى يكون للغرض المطلوب

وكان يقول نظم القرآن العزيز لا يستوفى الالفاظ لمحض استيفاء العبارة بعد ما تبين الغرض و فهم المقام فربما يَذَر لفظاً يفتقر اليه على الظاهر حيث يكون غناء عنه بعد وضوح المقصود و انجلاء الأدب المطلوب .

دأب التنزيل فى انتقاء الالفاظ

و قال رحمه الله و من رزقه الله ذوقا فى القرآن و حظاً فى العربية يعلم انه ليس يجرى على الحوار العامى المتبذل بل له طريقة متميزه فى انتقاء اللفظ و اللحظ فيه الى اصل الوضع و اعتبار حقيقة ما وضع له و من ثم يتعذر وضع لفظ بدل لفظ و ذلك لجهل المخلوق بحقائق الاشياء و بالذى يفى بالمقام و يوفى حقّه .

التكرار فى التنزيل و حكمته

و قال رحمه الله التكرار فى القرآن إنما يكون بقدر مشترك تارة و بقدر

مغاير أُخرى و قلما يكون مكرراً محضاً و كنا فى ادب إلى النوع الاول منه كثيراً ، كيف و لو لم يكثر الاول لما سهل تفسير بعضه ببعض و لما تسنى و تأتى توفير مأخذ الاحكام و الفوائد ، قال الشيخ و أُريد به انّه يوخذ من لفظ حكم و من لفظ آخر حكم آخر فى موضوع مشترك فيصير كمتن و شرح و الا لكان كمتن صرف ، ثم انه يؤخذ من التكرار الاعتناء و الاهتمام بشأن ذلك الغرض المطلوب كما يقال ذكرت الصلوة فى القرآن تسع مائة مرة فصاعداً .

نظام القرآن المجيد و تناسق آياته

قال رحمه الله و الذى يترا اى من عدم ارتباط بعضه ببعض فى بعض المواضع إنما يدل ذلك على علم - و هو ان الامور التى قصرت مداركنا على ابداء المناسبة فيها ، بينها ارتباطات و علائق لا يحيط بعلمها الا علام الغيوب ، و نظير ذلك ان الفقية المجتهد يسرد احكاماً فى باب من الفقه مسلسلة فربما يقصر اذهاننا عن فهم المناسبات بينها فنحسبها جزئيات منتشرة و تكون عنده منضبطة تحت اصل و قاعدة و قال و الاعنى فى باب النظم ارتباط بعض اجزاء الآية الواحدة ببعض و قد يشكل ذلك فالاعتناء بنظم الآية اهمّ منه بأرتباط الآيات الكثيرة ، مثاله قوله تعالى ﴿ فاعتزلوا النساء فى المحيض و لا تقربوهن حتى يطهرن فاذا تطهّرن فأتوهن من حيث امركم اللهُ ﴾ ، فالامر يشكل فيها بقراءة التشديد فى قوله ﴿ فاذا تطهّرن ﴾ مع قراءة التخفيف فى قوله ﴿ حتى يطهُرن ﴾ و ظاهر ان الطهور هو انقطاع الدم فقط و التطهّر أُريد به الاغتسال بعد الانقطاع فكيف يصح ترتب قراءة التشديد على قراءة التخفيف فيكون النظم غلى منوال لا تعطه فلانا حتى يدخل الدار

الدار فاذا دخل المسجد فأعطه ، و قد اختار الامام أبو حنيفة رحمه الله جواز القربان عند انقطاع الدم لاكثر المدة ، و الجواب بعد ان أُريد بالطهر الانقطاع فقط مع انه محتمل للانقطاع و الاغتسال كليهما و بعد ان أُريد بالتطهر الاغتسال بعد الانقطاع مع ان فيه وجوهاً من انقطاع الدم و غسل موضع الدم و الاغتسال او الوضوء بان ههنا مرتبتين الاولى مرتبة نفس الجواز و التوسع و اليُسر و الرخصة و الثانية مرتبة العزيمة و الاحوط الاولى فيكون الدلالة على المرتبة الاولى بقراءة التخفيف و على الثانية في ضمن قوله فاذا تطهّرن بياناً للاولى و المرضيّ عند الشارع في الأمر الصريح و الاذن الواضح نعم ان الانقطاع يتيقن عند اكثر المدة فراعه الامام أبو حنفية رح و هذه اللطيفة لا تتأتى عند اتحاد القراءتين او اتحاد مفهوميهما عند اختلافهما ، قال الراقم و في روح المعاني للسيد المفتي الآلوسي البغدادي كلام حاوٍ في اختلاف القراءتين في الغاية فقط فراجعه فانه حسن و مما قال ناقلاً عن الكشف ان القراءة بالتشديد لبيان الغاية الكاملة و بالتخفيف لبيان الناقصة « و حتى » في الافعال نظير « الى » في انه لا يقتضي دخول ما بعدها فتكون الكاملة البتة و بيانه ان الغاية الكاملة ما يكون غاية بجميع اجزائها و هي الخارجة عن المغيا و الناقصة ما تكون غاية بأعتبار آخرها و حتى الداخلة على الاسماء تقتضي دخول ما بعدها لو لا الغاية و الداخلة على الافعال مثل « الى » لا تقتضي كون ما بعدها جزءً لما قبلها فانقطاع الدم غاية للحرمة باعتبار آخره فيكون وقت الانقطاع داخلاً فيها و الاغتسال غاية لها باعتبار اوّله فلا تعارض بين القراءتين (يعني حتى يطهرن بالتخفيف و التشديد) و لعل

فائدة الغايتين بيان مراتب حرمة القربان فانها اشدّ قبل الانقطاع مما بعده ،آهـ.

تنبيه :- و هـذا الذى ذكرته من الجواب هو طرف مما يلقيه الشيخ رحمه الله فى الدرس ثم راجعت الى ما ذكره الشيخ فى مشكلات القرآن فوجدت كلامه هناك دقيقاً غامضاً يحتوى على أطراف و طُرف من البحث فلم يغادر رشئياً مما يرد هناك من اختلاف القراءتين الا و أجاب عنه ، و كذا اجاب مما يرد على الحنفية بما يشفى القلب و يطفى الوحر فليراجع اليه و أورد منه شئياً لتكميل الفائدة ههنا ، فأقول و هذا الذى اوضحته فى صدد الجواب فلعله ما أشار اليه بقوله « و للحنفية أن يحملوه على ما يعم الوجوب و الاستحباب » لعله يريد ان التطهر لما كان فعلاً اختيارياً بمباشرة المرأ فيحتمل ان يتضمن المرتبتين الوجوب و الاستحباب فالغسل واجب للاتيان إذا كان الانقطاع لاقلّ المدّة و مستحبّ إذا كان لاكثرها فهذا متقارب مما قرّرته و إن كان بينهما نوع تغاير حيث ليس هناك تفصيل للاقل و الاكثر الا إذا شرط التيقن فى الانقطاع فهو فى الاكثر من غير الغسل فلم يجب و فى ما دُونه بالغسل فوجب فالمفاد اذن واحدٌ .

ثم قال الشيخ فاذا تطهرن مرتبط بما قبل لا بقوله حتى يطهرن ، يريد رحمه الله انه ليس التفريع و الترتيب على يطهرن حتى يشكل ارتباط الآية و نظمها ، بل على قوله ﴿ فاعتزلو النساء ﴾ ، و قال رحمه الله و ليس المراد بالتطهر هو الغسل بالماء او الوضوء او الاغتسال كما ذهبوا اليه و إنما المراد العمل فى الطهارة و هو احد معانى السبعة عشر للتفّعل كما فى البحر المحيط الصفحة ١٦٥ الجلد ١ (يريد رحمه الله ليس معنى من هذه المعانى معناه الحقيق

بل

بل معناه الحقيق هو العمل فى الطهارة و هو فعل اختيارى و هو عام يشمل جميع هذه المعانى شمول الكلى افراده و جزئياته و هذا المعنى خاصّة للتفعل من خواصه السبعة عشر التى ذكرها صاحب البحر المحيط فى قوله تعالى ﴿ فتلقّىٰ آدمُ من رَّبّهِ - الخ ﴾ قال و إذا كان الامر كذلك فقد ادخل فى الآية امرين فعلاً اختيارياً (و هو العمل فى الطهارة) و غير اختيارى (و هو الطهر بالانقطاع) و لم يرد ايضاً ما اورده فى بداية المجتهد من عدم الارتباط و صار الكلام نحو قوله لاتعطه درهما حتى يشرف بيته فاذا دخله فاعطه او نحو لاتعطوه حتى يدخل فإذا ادّخل فاعطوه ، اه - هذا و الله اعلم .

تحقيق النسخ فى القران

اختلف العلماء فى احصاء ما نسخ من القرآن فاكثر منه القدماء لتوسعهم فى اطلاق النسخ على تخصيص العام و عكسه و تقييد المطلق و عكسه و الاستثناء و تركه و رفع الحكم بالكلية و انتهاءه بانتهاء علته ، و ما زال المتأخرون يسعون فى تقليله حتى الشيخ جلال الدين السيوطى جعله نحو عشرين نسخاً و زاد عليه فى التقليل الشاه ولى الله الدهلوى حجة الهند و نابغتها فى الفوز الكبير حتى حصره فى خمسة و الشيخ رحمه الله كان يقول لا يكاد يوجد شئ فى القران المتلو منسوخاً فى الحكم بحيث لا يبقى حكمه فى وجه من الوجوه او محمل من المحامل بل لا جرم يوجد حكمه مشروعاً فى مرتبة من المراتب و حال من الاحوال و زمان من الازمان ، و هذا الذى افاده الشيخ امر مهمّ ذقه ان كنت من اهله و من لم يذق و لم يدر مثل سائر و من ذاق

و ذاق فله فيه حكم و بصائر و الله الموفق و الهادى إلى الحق .

ليس فى القرآن حرف زائد

و كان يقول ليس فى الكتاب العزيز حرف زائد لا دخل له فى تصوير المعنى فحاشاه عن ذلك اقول قال ابن الاثير فى المثل السائر الصفحة ١٤٥ فى قوله تعالى ﴿ فبما رحمةٍ مِنَ الله لِنتَ لهم ﴾ ان لفظة ما ليست بزائدة و لكنها و ردت تفخيما لامر النعمة التى لان بها رسول الله صلى الله عليه و سلم و هى محض الفصاحة و لو عرى الكلام منها لما كانت له تلك الفخامة و قد ورد مثلها فى كلام العرب كقول زياد اما انه ليس ذلك من عوز المواس و لا من قلّة الاواس و لكنّه شيمة ما اناس فمعنى الكلام و لكنه شيمة اناس و إنما جاءت لفظة ما ههنا تفخيما لشان صاحب تلك الشيمة و تعظيما لامره و لو اسقطت لما كان للكلام ههنا هذه الفخامة و الجزالة و لا يعرف ذلك الا اهله من علماء الفصاحة و البلاغة و قول النحاة انها زائدة فانما يعنون به انها تمنع ما قبلها عن العمل كما يسمّونها فى موضع آخر كافّة اى انها تكف الحرف العامل عن عمله فكذا ههنا لم تمنع الباء عن عمل الخفض انتهى ملخصاً ، و قال الرافعى فى اعجاز القرآن الصفحة ٣٠٥ (الطبعة الثالثة) ثم الكلمات التى يظن انها زائدة فى القرآن كما يقول النحاة فى قوله تعالى ﴿ فبما رحمةٍ من الله ﴾ و قوله ﴿ فلما ان جآء البشيرُ ﴾ ان ما فى الاول و ان فى الثانية زائدتان اى فى الاعراب فيظنّ من لا بَصَر له انهما كذلك فى النظم و يقيس عليه مع ان فى هذه الزيادة لونا من التصوير لو هو حُذف من الكلام لذهب بكثير من

من حسنه و روعته فان المراد فى الاولى تصوير لين النبي صلى الله عليه و سلم لقومه و ان ذلك رحمة من الله فجاء هذا المدّ فى ما وصفا لفظياً يؤكد معنى اللين و يُفخّمه و فوق ذلك فان لهجة النطق به تشعر بإنعطاف و عناية لا يبتدأ هذا المعنى بأحسن منهما فى بلاغة السيّاق ، ثم كان الفصل بين الباء الجارة و مجرورها و هو لفظة رحمة مما يلتفت النفس إلى تدبّر المعنى و ينبه الفكر على قيمة الرحمة فيه و ذلك كله طبيعى فى بلاغة الآية كما ترى و المراد بالثانية تصوير الفصل الذى بين قيام البشير بقميص يوسف عليه السلام و بين مجيئه لبعد ما كان بين يوسف و ابيه عليهما السلام و ان ذلك كأنه كان منتظر بقلق و اضطراب توكدهما و تصف الطرب لمقدمه و استفزازه غُنّة هذه النون فى الكلمة الفاصلة و هى ان و على هذا يجرى كل ما ظنّ انه فى القرآن مزيد فان اعتبار الزيادة فيه و اقرارها بمعناها إنما هو نقص بخلّ القرآن عنه ، آه .

العبرة لعموم اللفظ ليس على العموم

قال الشيخ رحمه الله و ما اشتهر بين علماء الاصول من ان العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب ليس على عمُومه و الاهم الذى يعنى فى هذا الباب التفقد و التوخى لغرض المتكلم و ليس يلزم ان يكون منطوق كلامه مساوياً لغرضه فى سائر الاحوال بل ربما يكون منطوق الكلام اعم من غرض المتكلم او اخصّ و قد يكون مساوياً ، فالعبرة لعموم اللفظ يكون إذا لم يتعين غرض الشارع و لم يقم دليل على ما اراد منه كيف و قوله تعالى ﴿ فاقرءُوا ما تيسَّرَ منهُ ﴾ هل يراد منه ان الاقتناع بآية واحدة من غير

قراءة الفاتحة يكفى فى الخروج عن العهدة للمصلى و هل أتى الرجل يأمر القرآن إذا قرأ آية فى الصلوة من دون رعاية الامور التى علمناها من الخارج و هل يكفى بأمر القرآن فى العمل بان يؤدّى الصلوة من تعيين للفاتحة و غيرها من الواجبات و إذا كان هذا فكأنّ القرآن امر بشئ لم يعهد لنا فى الشريعة و المعهود غير ، كلا ثم كلا و من زعم ذلك فقد أخطأ الطريق و حاد عن المقصود بل كان غرض القرآن من هذا الأمر التخفيف فى القراءة ابقاءً على المرضى و السفر و المجاهدين رحمة منه و فضلاً حيث شق عليهم الامر بقيام الليل و اما مسئلة ركنية الفاتحة و وجوبها فمسئلة مفرزة تفرعت على الزيادة على القاطع ما لظنى كاخبار الاحاد فعند الحنفية تجوز فى مرتبة الظنية ان يكون الزائد على القاطع امراً ظنياً دون القطعى فى الحكم و ان كان العمل به واجباً و عند الشافعية تجوز فى مرتبة القطعية فالحنفية لم يهدروا العمل بالظنى كما يظن بل قامُوا بالفرق بين مرتبتى القطع و الظن اداءً للحق بما يلائم رتبة كل و اما التعبير العام عند الحنفية بانه لا يجوز الزيادة على كتاب الله بخبر الواحد فتعبير سمج غير ملائم فعند الحنفية و ان قضى حق الامر الذى جاء به القاطع بدون الفاتحة يدانه تأثم الرجل و وجبت عليه الاعادة إذا كان بالعمد و يلزم على التعبير العام ان يتحمل الكراهة فى مصداق الأمر الذى جاء به القرآن و هو غير لائق نعم يراد من الأمر على ما هو غرض الآمر لكنه يفرق بين المرتبتين المنطوق القطع و المعهود بالظنى و كان الاجمال فى القطعيات لامر ما مثل التوسعة و التيسير على الامة فليحفظ هذا ما فهمته من كلام الشيخ رحمه الله .

و رأيت للامام الحافظ ابن دقيق العيد رحمه الله تعالى فى كتابه احكام الاحكام فائدة تحتوى بمثل ما افاده شيخنا رحمه الله ، قال رحمه الله اشتهر ان العبرة لعموم اللفظ لا بخصوص السبب و لكن يجب ان يتنبه للفرق بين دلالة السياق و القرائن الدالة على تخصيص العموم و على مراد المتكلم و بين مجرّد ورود العام على السبب و لا تجريهما مجرىً واحداً فان مجرّد و رود العام على السبب لا يقتضى التخصيص به كنزول قوله تعالى ﴿ و السَّارِقُ و السَّارِقَةُ فاقطعُوا ايدِيَهُما ﴾ بسبب سرقة رداء صفوان فانه لا يقتضى التخصيص به بالضرورة و الاجماع ، اما السياق و القرائن فانها الدالة على مراد المتكلم من كلامه و هى المرشدة الى بيان المجملات و تعيين المحتملات (احكام الاحكام الصفحة ٢٢٥ الجلد ٢) .

و صلى الله تعالى ازكى صلوات و سلم اوفى تسليمات على سر الكائنات و صفوة الموجودات سيّدنا و نبينا الامىّ الهاشمى القرشى محمد و اله و صحبه و اتباعه و احبابه اجمعين إلى يوم الدين .

التعريف بكتاب مشكلات القرآن و عناية الشيخ رح بحلّ المشكلات و دابه فى ذلك

لعلك علمت أيها الناظر البصير مما سردنا فى هذه الصفحات من كلمات امام العصر شيخنا المحدث المتبحر و خزانة العلوم مولانا الشاه محمد انور الكشميرى ثم الديوبندى رحمه الله منثورة فى الابحاث المختلفة و بعضها منظومة فى موضع واحد ان الشيخ وصل من التحقيقات الغامضة و التدقيقات العالية

إلى ذروة سنامها و قلة شامخة من قممها و كم من اشياء هو ابو عذرتها و ابن بجدتها و لا يختصّ خصائصه بعلم دون علم بل حضرته الجامعة كالحلقة المفرغة فى سائر العلوم روايتها و درايتها لا يدرى اين طرفاها ، كانت له عناية شديدة بمشكلات العلوم و معضلات المسائل التى حارت لها العقول و عيبت بها الفحول وكان الله خلقه لها فأبدت فيها بدائع هى دُرر علومه و غرر تحقيقاته فمن اراد تفصيل شئونه العلمية و العلم بحيوته الحافلة بالفوائد الغزيرة فليرجع إلى كتابى نفحة العنبر فقد تضوعت فيها نفحات من حيوته العلمية و طاب اريجها و ابتلّت برشحات من مزنة مزاياه الوطفاء فارتفع عجيجها و سال فى المناكب و الشعاب غيرها و بحثيجها و اظنّ ان فيها كفاية للناقد البصير و الحاذق الخبير .

و ليعلم بعد ذلك انه و ان كان يخوض فى غمار المسائل العويصة ما لا يحصى عدداً غير انه يمكن ضبط مهماتها التى كان يضبطها فى تذكرته و برنامجته فى انواع ـ النوع الاول ما كان يتعلق بالآيات المشكلة و النوع الثانى ما يتعلق بالاخبار و الآثار المعضلة و النوع الثالث ما كان من باب الحقائق و الاسرار و الرابع ما يفيد الحنفية فى مسائلهم أو كان حجّة لهم فكان ذلك دأبه من شرخ شبابه و ريعان عهده بمطالعة كتب القوم حتى اجتمعت لديه ذخائر من نفائس الجواهر فى تذكرته من انواع العلوم و بدائع المسائل ، ثم انه اشتدت عنايته فى اواخر عمره بالتنزيل العزيز وكان يقول و القرآن المجيد احق بحل المشكلات من الحديث و ان مشكلات الحديث لا تبلغ مشكلات القرآن فالعناية بها احرى ان تكون اشدّ و اقوى فكان

فكان كلما سنح له شئ بحل مشكل من آى القرآن او وقف عليه فى كتب القوم فكان يقيده بقلمه او تفسير لطيف لآية من آيات التنزيل او ابداء نكتة دقيقة او تنبه على سرّ غامض جادت به قريحة الثرثارة او اطلع به فى كتب اعلام الامة او الفى نقلاً من غرر النقول فكل ذلك كان يضبطه .

و كان من شريف دأبه فى شهر رمضان انه كان يتلو القران المجيد بغاية تدبّر و امعان فكان ينقضى يومه كله من بعد صلوٰة الفجر إلى ان تغرب الشمس فى تلاوة جزء واحد فهكذا كان يختم القرآن مرة فى شهر رمضان و هكذا تنقضى انفاسه المباركة و نفثاته الميمونة فيه بتدبّر و تفقه و امعان و بقى على تلك الحال برهةً من عمره ، ثم فى اثناء تلاوته إذا تنبه على مشكل كان يتوخى و يتفقد اولاً حلّه من مظانه من اسفار اعيان الامة من زبر التفاسير او غيرها ان لم يكن له شئ فى خزانة حافظته الجامعة لنفائس الدرر ، فان ظفر فى كلامهم بشئ مفيد قيّده بلفظه و هو قليل او لخصه فى عبارته و هو كثير او احال على المراجعة اليه برمز الصفحة و هو اكثر و ان زاد عليه شيئاً او تعقّبه برأى مصيب ضمّد اليه ، و لما كان من غزارة المادة و سعة الاطلاع بمنزلة قاصية لا يدرك منتهاها ربما اكثر من حوالات الكتب فكثيراً مّا يلتبس الغرض الذى احيل عليها و ربما ضاق نطاق المقام باكثار الحوالات فكتب الحوالة بعيدة عن الموضع الذى ينطت به فيشتبه الأمر على الناظر و يظنها متعلقة بالموضع الاقرب و هو بعيد و ان لم يظفر بشئ ينحل به العقدة فى كلام الاعلام فكان يطيل النظر و يرخى البطوّل و يمعن الفكرة اللطيفة فاذا سنح له سانح استقاده فى تذكرته تحت الآية

فهكذا قد استقاد اوابد من الابحاث الغزيرة النادرة و اصطاد شوارد من المشكلات التى اقفلت ابوابها على جهابذة القوم حتى اجتمعت ذخيرة و افرة و مادّة غزيرة بعدة آيات مشكلة و لكن كان الشيخ رحمه الله دقيق النظر قوى الحدس سريع الانتقال غامض المسلك واسع الباع رحيب العلم يتنبّه لمشكل قلما يتنبه لمثله الا افذاذ من الاعلام و الاعيان فتوسعت مشكلاته بسعة معلوماته ثم ما هذا كان مولعاً بالايجاز و الاختصار لم يكن دأبه ان يسترسل القلم فى الايضاح و التفصيل نعم كان يسترسل قلمه فى بسط المادة و إذا كان المادة غزيرة و الابحاث مشكلة و العبارة موجزة جدّاً و يفتقر الناظر إلى انفاد الوسع و استفراغ الجهد فى جملة جملة لا جرم لا تستانس الطبائع العامّة بأمثال هذه التاليفات فى العصر الحاضر و تقصر الاذهان عن شأوها البعيد فلم يكن من دأبه ايضاح الاشلال و تصوير المقال بل كان يبدى رأيه جواباً لما كان يحسّه هناك من الاشكال فهذا الامر اصبح منشأ لاخفاق الطلبة بل اماثل العصر عن ان يستفيدوا عن مؤلفاته التى ملئت جواهر قيمة و لآلى غالية لكنها فى مطاوى البحور و معادن الصخور فكان يتكلم بما يليق برتبته السامية لا ينزل عنها كثيراً ، وكان رأيه فى الايجاز و الاكتفاء بالمقصود كما قال ابن النديم ، النفوس اطال الله بقاءك تَشرَأبُّ إلى النتائج دُون المقدمات و ترتاح إلى الغرض المقصود دُون التطويل فى العبارات ، اه ـ نعم من كان يبتلى بمشكل ثم يستقرى له اسفار القوم و كابد له و قاسى الشدائد فيه ثم يراجع لما ذكره الشيخ يقدره فى سويداء القلب و جذر الفؤاد و لأثنى على مكابدته البالغة إلى اقصى الغاية و لعرف رتبة الرفيعة

و حار اذن من علومه المحيرة و اطلاعه الواسع المدهش و لكن اين الطبائع التي تنوء باعباء هذه المشكلات و تقاسى لها الشدائد و تكتحل السهاد لأجلها و خالات الناس بالدهناء قليلة و بالجملة « مشكلات القرآن » هذه و ما ادراك ما هـــذه عبارة عن تلك الذخيرة التى جمعت فى تذكرة الشيخ ما يتعلق بالقرآن العزيز فهذا الكتاب النبيل هو روح ما عندهم من مشكلات الآيات القـــرآنية مع روح معه مثله من إمام العصر الشيخ الانور رحمه الله فالشيخ رحمه الله قد نخل مؤلفاتهم فى التفسير و ما عداه من العلوم و غربلها مما كان عليه مناط حل المشكلات فأخذ لبابها و مغزاها و رشف معناها و ما حواها فيقدره من كابد لمطالعة مؤلفات القوم و بلغ فيها الجهد البالغ و العنت الشاق ثم ضمّ اليه ما جادت فكرته التى كان معدناً من معادن الجواهر السنية و الكنوز الغالية و على الله اجره الجزيل ، وكان يريد رحمه الله ان يخرج للقوم هذا العلق النفيس فى اجمل صورة و ازهاها و لكن وصل إلى الرفيق الاعلى و لحق بالملا الاعلى قبل ان يتم هذا الأمر و طارت الامانى المنوطة بوجوده مهبّ الرياح العاصفة فبقيت تلك الذخيرة على تلك الحالة بتراء فى تضاعيف مسوّداته فاشتاقت اليها عصبته من المولعين بعلوم الشيخ أن يخرج للناس هذه الجواهر الغالية من معادنها و إن تطبع فى ايّ صورة كانت و لكانت اجدى من تفارق العصا و اجـــدى من الغيث فى أو انه فشمرّ لترتيبها و جمعها اعضاء المجلس العلمى القائم بدابيل (سورت) و عزموا على طبعها و كان فى الحقيقة داماء لا يقطع بالارماث فصديقنا و رفيقنا الفاضل المتبصر المولع لعلوم الشيخ و الحريص ببسط مائدتها الجفلى للامـــة السيد

أحمد رضا البجنورى ناظم المجلس العلمى لا زالت مساعيه الجميلة مباركة مثمرة معورقة معذقة قام لجمع حوالاتها من الكتب فجمع قدراً صالحاً من تلك الحوالات المهمّة تكميلاً لفائدتها و توسيعاً لمائدتها و سيصدع هو بدأبه فى جمع الحوالات و ما كابد فيه من المشكلات فى مقدمة مستقلة على طبع هذا الكتاب الجليل و أمرنى بتاليف مقدمةٍ تلائم هذا المؤلف الجليل بما يحتوى على اشياء تفيد بصيرة فى هذا الكتاب و فى هذا الفن و ان اذكر فيها ما وصل اليه علمى من فوائد الشيخ ما يليق بهذا الموضوع فوفقنى الله لما كنتُ حاولتُ ذكره مع جمود القريحة و خمود الفطنة و ضيق الفرض و اشتغال الاوقات بالدرس و احتفالها ببعض المضيعات ما عداها و ذكرتُ اموراً ما كنت قاصداً ايرادها من البدأ و لكن الجئتنى ضرورة إلى ذكرها فى البين فذكرتها و ارى ان لا تخلو عن فائدة لطلبة العلم و طالبى الحق و الهدى من الاخوان و الخلان فله النعمة و الفضل و الثناء الحسن لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك و له الحمد و هو على كل شئ قدير و قد فرغت من انجازها ليلة الجمعة المباركة الثامنة عشر من شهر رجب سنه ١٣٥٦ هجرى ست و خمسين و ثلثمائة بعد الألف من الهجرة النبوية على صاحبها الف الف صلوة و تحيّة و كان الشروع فيها فى اواخر الجمادى الاولى من تلك السنة ، اللهم تقبلها منى و اجعلها خالصة لوجهك الكريم و اجعلها مولائى وسيلة لفتح اسرار الذكر الحكيم و الكتاب المبين على عبدك المسكين و ذريعة إلى هداية علوم كتابك المخزون المكنون للعبد المحزون اللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلبى و نور بصرى و جلاء حزنى و ذهاب همى

اللهم إنى اسئلك رحمة من عندك تهدى بها قلبى و تجمع بها امرى و تلمّ بها شعثى و تردّ بها رغائبى و ترفع بها شاهدى و تزكى بها عملى و تلهمنى بها رشدى و ترد بها الفتى و تعصمنى عن كل سوء و صلى الله تعالى على سيد المرسلين و إمام المتقين و خاتم النبين محمد و آله و صحبه اجمعين آمين آمين يا رب العلمين ربّ السماوات و الارضين و رب الاولين و الآخرين .

تمت